دومينيك ڤالبيل

الناس والحياة في مصر القديمة

ترجمة
ماهر جويجاتي

مراجعة
د. زكية طبوزادة





١٤

كتاب الفكر

الناس والحياة
في
مصر القديمة

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٩



القاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٢٥/٤٢
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

ت : ٢٦١٣٤٣٣

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع البعثة
الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة

كتاب الفكر ١٤

دومينيك ڤالبيل

الناس والحياة في مصر القديمة

ترجمة
ماهر جويجاتي

مراجعة
د. زكية طبوزادة



هذه ترجمة لكتاب :

LA VIE DANS L` EGYPTE ANCIENNE

" Dominique Valbelle "

ISBN 2 13 041730 2
Dépôt légal — 1re édition : 1988, juin

108, boulevard Saint-Germain, 75006 Paris

المقدمة

تشهد آثار مصر الفرعونية على الأهمية التى أولاها إنسان ذلك العصر للحياة الآخرة التى طغت على الحياة الدنيا . فقد حافظ لنا الزمن على مقابر الملوك وعلية القوم التى شيدها المصريون ، فى معظمها ، بالحجر أو نقروها فى الصخر ، بينما اقتصر استخدام الطوب اللبن ، تقريباً ، على تشييد القصور والدور الفخمة أو البيوت المتواضعة سواء بسواء . ويلاحظ أن الفضل فى الاحتفاظ بفكر المصريين القدماء وعاداتهم اليومية واحتياجاتهم يرجع غالباً ، إلى هذه المعتقدات .

وفى الواقع ، ربما كان من الممكن التنقيب فى بعض المدن أو القرى القديمة ، أو إلقاء نظرة على سجلات المحفوظات التى وصلت إلينا ، أو مطالعة القصص والحكم التى احتفظ لنا بها الزمن ، ولكن من المؤكد والثابت أن الإضافة الحقيقية والأساسية لا تتوفر إلا من خلال النصوص والصور المنقوشة أو المرسومة على جدران هذه المقابر ، أو ما سلم من محتوياتها من أعمال النهب والسلب . وتبعاً للعصر وإمكاناته الشخصية ووظيفته كان المصرى يختار بعناية ، ما يود تسجيله على جدران الدار التى ستصبح بعد وفاتــه ، داراً للأبديه ، فيصور أهم أحداث حياته ، والمقربين إليــه من أفراد أسرته ، والعاملين معه ، وأعز ما يمتلك . كما كان المصرى القديم يروى أهم أحداث حياته ، ويسترجع ذكرياته المهنيه ، ويسجل ما قد يكون له من علاقات بفرعون أو بأحد الأعيان . كما احتوى المتاع الذى يرافق جنازة المتوفى إلى جانب البياضات ، على الأثاث والأدوات والأطعمه . ومنذ نهاية الدولة القديمة وحتى بداية الدولة الحديثة ، أضيفت إلى هذه الإيضاحات التصويرية التى تغطى الجدران نماذج مصغرة من المبانى والأنشطة الحرفية والزراعية . ولئن كان علم الآثار عادة ما يقدم لنا مكتشفاته بطريقة جامدة تحتاج إلى تفسير ، فإن تنوع هذه الوثائق يفيض بالحياة والنضارة . ولكن هذه الصور لا

تعكس كل الحقيقة ، ومن ثم فإنه لا ينبغى أن نأخذها على علاتها ، بل علينا أن نفهمها فى إطارها الحقيقى . فمشاهد الأنشطة والصور التى تمثل الممتلكات المختلفة ، إنما هى تجسيد لقوالب ثابتة ، مع استثناء الصور التوضيحية للأناشيد الجنائزية التى تعين المتوفى فى حياته فى العالم الأسفل . كما أن السير الذاتيه ، كثيراً ما لا ترتكز إلى معلومات حقيقية ، إلى جانب ما تزخر به من مباهاة وفخر يتكرران دون ملل أو كلل . ومن ناحية أخرى كانت الورش المتخصصة تتولى صناعة الأثاث الجنائزى الذى لم يكن بالضرورة مطابقاً للأثاث الذى يستخدمه الإنسان فى حياته العادية . غير أن بعض الإشارات تفلت أحياناً من بين ثنايا نسيج التقاليد المصرية المتين ، فتفضى إلينا بمعلومات جديدة : فالفقراء مثلاً يدفنون بثيابهم القديمة ،إلى جانبهم أثاثهم القديم . وقد حدث فى نهاية الدولة القديمة وفى الفترة الإنتقالية الأولى ، تزايد نفوذ بعض حكام الأقاليم ، فأطنبوا فى أحاديثهم ، وحفلت رواياتهم بالقصص التى تدور حول إضطراب الأحوال ، وبالحِكَم التى استخلصوها من تقلبات الزمن . ومع حلول الأسرة الثامنة عشرة ، وخلال أزمة العمارنة ، تجددت موضوعات التصوير الفنى ، واتجهت إلى نقل الطبيعة بأسلوب أقرب ألى واقع الحياة اليومية .

ومع كل ما فى هذه المشاهد من جاذبية ، إلا أنها تعكس مديحاً وإطراءً للمصرى وبيئته يتفقان والإنطباع الذى يود أن يتركه وراءه بعد وفاته . صحيح أنه لم يدر بخلد المصريين القدماء أن يمتعوا ملايين السياح الذين يزورون مقابرهم كل عام بهذه المشاهد . كما أن أعمال سلب ونهب المقابر كانت من الأمور الشائعة منذ القدم ، هذا بالإضافة إلى إعادة استخدامها لدفنات جديدة . ورغماً من ذلك فقد ظل أمل كل مصرى قوياً ، لا يتزعزع ، فى أن جثمانه سيظل بعيداً عن أية إنتهاكات وإنه لن يتعرض للأذى فى رقاده الأخير ، وأن إسمه سيظل

محل تكريم من كل عابر سبيل ، ولذلك توجه بنداءات فى هذا الإتجاه سجلها فى المقصورات التى يتوافد عليها الأحياء لوضع القرابين من أجل موتاهم . وكانت هذه المشاهد محصلة موجزة لتراث الدنيا بمادياتها ، ومعنوياتها ، وبذلك لم يكن المتوفى ينقصه شىء ، فالوفاة فى نظر المصريين ، مجرد إنتقال من حياة إلى أخرى ، ليس بينهما إختلاف واضح .

ومن ثم فإنه سيكون أكثر مدعاة للإطمئنان من الناحية العلمية أن نعتمد فى بعث الحياة اليومية لقدماء المصريين على الآثار الحقيقية لوجودهم . ولكن هل يمكن الوقوف على مجمل حياة إنسان بالاستناد إلى بعض واجهات جدارية أو نفايات حصلنا عليها من أماكن تجميع المخلفات . أما إذا أسعفنا الحظ فلن يزيد ما يمكن أن نجمعه عن أجزاء بسيطة لسجلات إدارية . لقد مرّ ما يزيد عن عشر سنوات ، منذ أخذت حفائر الأثريين تتركز فى مدن وادى النيل وتفضى إلى نتائج ملموسة . فتوصلنا إلى تحديد الإطار البيئى الذى عاش فيه قدماء المصريين ، والنظام الغذائى الذى اعتمدوا عليه بمساعدة العديد من العلوم الثانوية . وانكب العلماء على دراسة ما حفظه لنا الدهر من مدونات رسمية ، وملفات إدارات المحفوظات ، وعقدوا بينها المقارنات ، فطوروا معارفنا حول البناء الاقتصادى والاجتماعى لمصر فى العصور المختلفة ، ومن ثم توصلوا إلى سد الفراغ الناشىء عن قلة الوثائق . وعلى هذا فإنه لا بد من التواضع ، وتجنب تحميل المعلومات المتاحة بأكثر من معناها الحقيقى حتى يكون من الممكن القيام آجل ببحث من أكثر الأبحاث صعوبة ، ولكنه يتعلق بأكثر فترات التاريخ إثارة ، ألا وهو استرجاع حياة شعب من أقدم شعوب العالم المتحضر ، ليروى لنا قصته على امتداد ألفى سنة بدءاً من الدولة القديمة (حوالى عام ٢٧٠٠ ق . م) وحتى نهاية الدولة الحديثة (١٠٨٨ ق . م) . حقاً ، إنه لبحث من أشق الأبحاث التى

يطرحها التاريخ وأكثرها إثارة أيضاً .

ومن نافلة القول ، أنه رغم ما عرف من تأصيل نزعة الحفاظ على التقاليد الموروثة فى نفوس سكان وادى النيل ، فإنه يصعب علينا استبعاد أى اتجاه نحو " التطور " . ويرجع هذا التطور إلى التقلبات التى تؤثر على التوازن الصعب بين سلطة الملك وسلطة حكام الأقاليم من جهة ، وإلى طبيعـة ومآل ميزان القوى بين مصر وجيرانها من جهة أخرى . لقد ترتب على هذا " التطور " تغيرات طفيفة ، أو عنيفة أحياناً ، فى عادات المصريين وأفكارهم على المدى البعيد . ومن هنا تبرز أهمية الرجوع إلى التأريخ الزمنى باستمرار وعلى الدوام .

*

* *

نجحت الأسرتان الأولى والثانية ، فى إقامة سلطة موحدة فى أرجاء البلاد ، وبادرت إلى اتخاذ قرارات سياسية واقتصادية حاسمة ، وأنشأت مؤسسات صارت من القوة بحيث استمر تأثيرها على امتداد تاريخ مصر وحتى دخول الإسكندر .

ففى حوالى ٤٥٠٠ ق . م جرت فى مصر عملية مشابهة لما حدث فى بلاد النهرين . إذ تجمع سكان الدلتا ووادى النيل فى قرى كبيرة . وتشير المخلفات التى تركتها هذه القرى إلى وجود إرهاصات تنظيم اجتماعى على أساس تقسيم العمل ووجود نشاط حرفى ، تصدرته صناعة الفخار . وخلال الألف الرابع ظهرت عدة حضارات على أرض مصر كانت بعضها على اتصال بالشرق الأدنى ، وأظهرت بعضها براعة فائقة فى مختلف الصناعات ، لا سيما الأدوات المصنوعة من الحجر الصلب ومن العاج ، وصناعة الأوانى ، والصلايات ، والتماثيل الصغيرة ، ومقابض

السكاكين . وتوحى نوعية بعض هذه الصناعات من جهة ، وأسلوب صقل بعض الأدوات الظرانية من جهة أخرى ، إلى وجود نوع من التخصص فى العمل . ويمكن اعتبار التقدم الملحوظ فى صناعة الفخار دليلاً على ذلك . ومن ثم فإن توزيع الأعباء داخل الجماعات الريفية كان يفرض نفسه فرضاً . نشأ هذا الوضع الجديد حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وتواكب مع توحيد الدلتا ووادى النيل تحت قيادة موحدة ، وإن كانت هذه الوحدة تمت على حساب الدلتا .

واتخذ الملك فى هذا العصر المبكر عدة إجراءات استهدفت تدعيم المركزية فى إدارة المملكة الجديدة . ومن هذه الإجراءات تنظيم الرىّ ، وضبط المجارى المائية ، وعمل حصر للماشية والأراضى الزراعية والذهب المستخرج من المناجم ، وتعداد أسرى الحرب ، وربما السكان المحليين أيضاً . كما أسس أولى المراكز الحضرية حيث تجمع القرويون بعد أن هجروا الريف . وكانت أرض مصـــر ملكاً لفرعون ، وسكانها يعملون فى خدمته . وتأسس جهاز إدارى مستقر يعتمد على تسلسل وظيفى صارم ودقيق . وبقيت لنا بعض الألقاب التى تشير إلى وظائف أصحابها . ومع تزايد النصوص ـ التى أبقى عليها الزمن ـ مع مطلع الأسرة الثالثة والأسرة الرابعة على وجه التحديد ، أصبح فى الإمكان تصور بنية المؤسسات ، والسمات الرئيسية لنشأة المجتمع المصرى وبدأياته . ومع قيام الأسرة الخامسة ، نلمس بعض التغييرات الهامة التى أدخلت على النظام الملكى ذاته فى علاقاته مع الأجهزة الإدارية بالأقاليم . ومن الآن فصاعداً ، سيتميز تاريخ مصر بالسعى وراء حل وسط ، يجمع فى إنسجام ، بين حكومة مركزية بالضرورة ، وبين النزعة الملحـــة إلى تدعيم سلطة الأقاليم .

الفصل الأول

الطبقات الاجتماعية والأوساط الاجتماعية المهنية

ترتكز الأبحاث الديموجرافية القليلة عن مصر الفرعونية ، في أساسها ، على تقديرات المحاصيل الزراعية ، فيمكننا افتراض عدد تقريبي للسكان ، الأمر الذي يترك باب الاجتهاد مفتوحاً للخوض في دراسة منهجية تعتمد على الأرقام التي تتيحها لنا النصوص المصرية القديمة ذاتها .

جدول عدد سكان مصر الافتراضي

(استناداً إلى تقديرات المحاصيل الزراعية) نقلاً عن K. W. Butzer , Early Hydraulic Civilization in Egypt , Chicago , 1976 , P. 83 .

الجدول رقم (٤)

المنطقة	العصر الثيني (*)	الدولة القديمة	الدولة الوسطى	الدولة الحديثة
وادي النيل	٦٠٠ ...	١ ٠٤٠ ...	١ ١٢٠ ...	١ ٦٢٠ ...
الفيوم	٦ ...	٩ ...	٦١ ...	٧٢ ...
الدلتا	٢١٠ ...	٥٤٠ ...	٧٥٠ ...	١١٧٠ ...
الصحاري	٥٠ ...	٢٥ ...	٢٥ ...	٢٥ ...
الجملة	٨٦٦ ...	١٦١٤ ...	١٩٦٦ ...	٢٨٨٧ ...

(*) اعتاد المؤرخون المحدثون أن يطلقوا على عصر الأسرة الأولى والثانية أسماء عدة منها " العصر العتيق " إشارة إلى قدمه ، ومنها " العصر الثيني " نسبة إلى =

ومن الصعب مقارنة الأعداد الإفتراضية التى نقلناها هنا ، بالأرقام المستمدة من النصوص المصرية القديمة التى تعنى بفئات محددة من السكان فحسب ، فهى عبارة عن حصر لأسرى الحرب ، أو العمال ، أو الفرقهالتى يجرى تجنيدها لحملات عسكرية محدودة ، أو أفراد البعثات التى يتم تجهيزها لإرسالها إلى المناجم والمحاجر الواقعة فى الصحارى المحيطة بالوادى . إن سجلات التعداد التى لا تزال باقية نادرة وقليلة ، كما أنها ناقصة ومتعلقة بفئة محدودة من السكان . وتقدم لنا هذه الوثائق صورة لنظم إدارية شديدة التعقيد ، منبثقة من هيئة مركزية قابضة ، وطيدة الأركان ، لم تترك وراءها سوى آثار غير مباشرة من خلال الأجهزة الإدارية المحلية التى خلفت أحياناً شواهد دقيقة . والمثال الواضح لذلك ، مؤسسة عمال الجبانة * بالبر الغربى لمدينة طيبة فى عصر الرعامسه . وبفضل تضافر المعلومات التى عثر عليها بالسجلات مع البقايا الأثرية ، أمكن التوصل إلى حقائق قيمة حول قرية العمال التى كانت فى خدمة فرعون . وهى تتكون من أربعين إلى ستين أسرة ، وكل أسرة يتراوح عدد أفرادها بين فردين وستة أفراد ، تعيش فى مسكن مساحته ما يقرب من سبعين متراً مربعاً . كما وصلتنا معلومات أخرى متناثرة تخص جماعات وعصور مختلفة ، ولكنها لا تشكل أية إضافة حقيقية لكونها معلومات جزئية ومتفرقة .

= " ثنى " بالقرب من ابيدوس والتى ينتسب إليها مؤسس الأسرة الأولى تبعاً لما ذكره مانيتون . ومن الأسماء التى أطلقت أيضاً على هذه الفترة الزمانية : " بداية العصور التاريخية " ، و " بداية الأسرات " ، و " العصر المبكر " ، وأيضاً " عصر التأسيس والبناء " . المراجع .

* هى دير المدينة بالبر الغربى للأقصر ، والمعروفة بإسم (مكان الحق) وبها بقايا قرية للعمال إلى جانب مقابرهم (المترجم) .

١ ـ الفئات البشرية والطبقات الاجتماعية

كتب هيرودوت ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فى الجزء الثانى من كتابه " تمحيص الأخبار " ، الفصل ١٦٤ ـ يقول : " وتوجد سبع طبقات من المصريين تسمى : طبقة الكهنة ، وطبقة المحاربين ، ورعاة البقر ورعاة الخنازير والتجار والمترجمون والملاحون . ذلك هو عدد طبقات المصريين وأسماؤها ناشئة من حرفها " (ترجمة د. صقر خفاجة . الهيئة المصرية للكتاب) . وهذا الوصف الذى يقدمه المؤرخ الأغريقى عن النظام الإقطاعى السائد أبان القرن السادس قبل الميلاد يؤكد وجود هذه الطبقات الاجتماعية التى ترجع أصولها إلى أقدم العصور . ومع ذلك فإن التعرف على هذه الطبقات يبعث على الحيرة ، ولا يتفق مع الأوضاع الاجتماعية فى العصور القديمة .

ترجع قائمة " الأونوماستيكون " ، إلى القرن الثالث عشر* . (عصر الرعامسه) وهى من تصنيف أمنموبى . وهذة القائمة ، أشبه ماتكون بمذكرة موسوعية . فبعد أن تستعرض العناصر والكيانات الربانية ، تذكر الملك ، والمقربين إليه ، ورجال البلاط ، وكبار الرسميين ومعاونيهم ، ثم تنتقل إلى أسماء الكهنه ، والعمال ، والحرفيين وأصحاب المهن المختلفة . ثم تحدد أعظم الطبقات الاجتماعية وأشهر الشعوب ، وكبرى الجماعات البشرية . ولكن لا يوجد هناك رابط واضح بين هذه العناصر ، إذ ترد الألقاب الدينية جنباً إلى جنب مع الوظائف الإدارية فى حين تختلط أسماء الوظائف العسكرية بمجموعات المسئولين الاقتصاديين .

---

* فى الأصل الأسرة الثالثة عشرة (المراجع) .

ومع ذلك ، نكتشف فى هذه القائمة الطويلة بعض الحقائق التى تأكدت صحتها بعد مقارنتها بغيرها من نصوص موجزة . فنجد أن عاهل البلاد الذى اصطفته الآلهة ليتحدثوا إليه ، يبرز باعتباره الشخصية الأولى فى البلاد ، فيجمع بين يديه مطلق السلطات ، ويتمتع بكافة الامتيازات ، وفى الوقت نفسه يضطلع تجاه بلده وتجاه رعاياه بواجبات تثقل كاهله . ومع مرور الزمن ، فإن الملك يقتسم سلطاته وامتيازاته ومسئولياته مع كبار موظفيه المدنيين والدينيين والعسكريين الذين دأب على اختيارهم من بين أفراد أسرته . وكان هذا النمط من الحكومات الأتوقراطية يظهر مع كل حركة إصلاح كبرى فى أعقاب عصور الإضطرابات الداخلية أو الغزوات الخارجية . وعندما يعم الرخاء وتظهر وظائف جديدة من ناحية ، ويتضح عدم فاعلية السلطة الشرعية من ناحية أخرى ، يتحول النظام الأتوقراطى تحولاً جوهرياً ليصبح نظاماً شبيهاً بالنمط الإقطاعى ، فتتعاظم اختصاصات حكام الأقاليم وتتسع على حساب السلطة المركزية . وقد تفتح مثل هذه الأوضاع الطريق أمام عين من أعيان الريف ، أو أحد العسكريين ، أو أحد الكهنة ، ليستونى على السلطة ويتربع على عرش البلاد ، فيعوض بفاعليته وحزمه وهن الدولة وضعفها . إن الحقائق السابقة تلقى الضوء على الأسباب التى جعلت قائمة أعلام أمنموپى تصنف أسماء كبار رجال الدولة مباشرة فى أعقاب أفراد الأسرة المالكة ، وربما كانت شخصية مصنف قائمة أعلام الأنوماستيكون وراء إفساح الجزء الأكبر من القائمة أمام الجهاز الإدارى ، فجمعت بين كبار المراتب الوظيفية وأقلها شأناً سواء بسواء . ومن المعروف أن أمنموپى عمل فى وظيفة كاتب ينسخ الكتب المقدسة فى " دار الحياة " * . بيد أن تركيز الأنوماستيكون على الجهاز الإدارى

---

* مؤسسة ثقافية تلحق بالمعبد المصرى ، وهى متعددة الأغراض ، وبها مكاتب لنسخ النصوص الدينية اللازمة لممارسة الشعائر ، وكان لها صلة وثيقة بالطب والسحر .(المترجم)

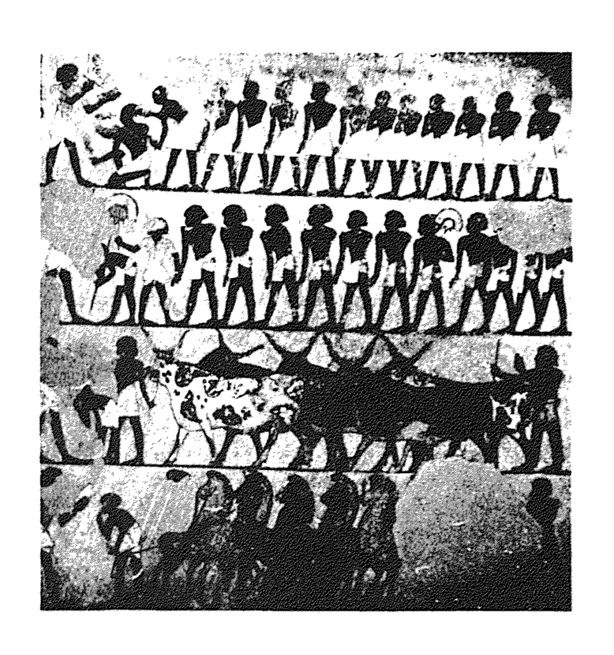
لا يتعارض مع الشواهد المتعددة التى تشير إلى تواجد هذا الجهاز فى طول البلاد وعرضها وأنه ظل راسخاً مستقراً فى أحلك الظروف وأكثرها إضطراباً ، أما الكهنة ، فقد جاء ترتيبهم فى قائمة الأعلام قبل العمال والحرفيين .

ونلاحظ هذا التسلسل فى الهرم الوظيفى فى وثيقة ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة . أنه مشهد تعداد السكان المصور على جــدران مقبرة " ثانونى " * ، الكاتب فى جيش تحوتمس الرابع . ويوضح المتن المدون بالخط الهيروغليفى ** أن المقصود هو أن " يشمل التعداد أرجاء البلاد وأن يتم فى حضــرة صاحــب الجلالة ، مع عمل إحصـــاء لكافـــة

---

* صاحب المقبرة رقم ٧٤ بالبر الغربى بمنطقة علوة الشيخ عبد القرنة (المترجم)

** عرفت اللغة المصرية القديمة ٤ أنواع من الكتابة :
١ ـ الكتابة الهيروغليفية وهى كلمة يونانية تعنى الكتابة المقدسة .
٢ ـ ونشأت عنها كتابة مختصرة تعرف بالهيراطيقية أى الكتابة الكهنوتية باليونانية .
٣ ـ وقد تطورت بدورها إلى كتابة أكثر اختصاراً تعرف بالديموطيقية أى الكتابة الشعبية .
وبلغت العلامات الهيروغليفية عدداً كبيراً فى أيام الحضارة المصرية المتأخرة . وإن كان الكتاب فى أيام الدولة الوسطى والحديثة كانوا يكتفون بحوالى ٧٠٠ علامة هيروغليفية وتبلغ عدد العلامات المسكوكة لدى مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية وهى أغنى مطابع العالم ـ أكثر من ستة آلاف علامة هيروغليفية .(المترجم)
٤ ـ والكتابة المعروفة اصطلاحاً باسم " اللغة القبطية " وهى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية مع إضافة سبعة حروف ديموطيقية (المراجع) .



شكل ١ : مشهد التعداد فى مقبرة " ثانونى " فى طيبة .

الأحياء بمعنى حصر الجند والكهنة المطهرين * وموظفى الملك ومختلف الحرفيين فى أرجاء البلاد ، وحصر الماشية بأنواعها والطيور الداجنة والأغنام " . أما ترتيب الرسومات فيختلف اختلافاً واضحاً . فالكهنة يتصدرون الصفوف يليهم فى الترتيب موظفو فرعون ، فالجند ، فالماشية وفى نهاية المطاف الجياد . وربما ابتغى الكاتب الذى دون المتن أن يمتدح ثانوتى لذا وضع الجند فى مركز الصدارة .

وكان من المفترض أن يشمل التعداد المشار إليه البلاد قاطبة من إنسان وحيوان ، ولكن الملاحظ على ما يبدو أنه اقتصر فى واقع الأمر على أدنى الطبقات والماشية ، فحسب . إن مجموعة قائمة الأعلام التى صنفها أمنموبى ، قد ذكرت الوظائف العليا ـ الإدارية منها والدينية والعسكرية ـ دون أى ترتيب بحيث يتعذر أن نستخلص منها أى تسلسل وظيفى . إن احتلال الكهنة الآخرين مكان الصدارة بالنسبة للعمال والفلاحين ، لا يعتبر خروجاً على المألوف فى دولة يستند فيها الحكم إلى الحق الإلهى . والشىء نفسه نجده فى كتاب هيرودوت . وعلى كل حال ، كان شباب الكتبة ، يعيدون نسخ هذه النصوص ، وما يماثلها من نصوص فى دور الحياة داخل المعابد .

ومن كل الملاحظات التى ترتبت على تحليلاتهم ، رغم اختلاف الموضوع ، نتج قدر بسيط من المعلومات المؤكدة حول مكانة الأفراد وفئاتهم فى المجتمع المصرى . ومع ظهور الدولة ونظمها صار كل فرد فى

* وظيفة الكهنة المطهرين فحص طهارة الحيوان ، بعد ذبحه وقبل تقديمة كقربان . فإذا قرر الكاهن طهارة الذبيحة ، قسمت إلى أجزاء صغيرة ثم وضعت على مائدة القرابين .(المترجم)

المجتمع خاضعاً من حيث المبدأ إلى السخرة * ، فيزاول عملاً محدوداً فى خدمة الملك فى إطار مجتمعه وطبقاً لمهاراته . وكان فى سلطة الملك نقل الموظفين للعمل بالأوقاف المدنية أو العسكرية أو الدينية أو الجنائزية ، أو حتى لدى أحد الأفراد لمدة محددة أو بشكل دائم . ومع مرور الزمن إكتسبت الأمور مزيداً من المرونة .

كان المصريون منذ أقدم العصور ، يفرقون بين مختلف الأوضاع الاجتماعية لأفراد مجتمعهم . فهناك الأشراف " پعت " ** ، إلى جانب عامة الشعب أو الرعايا " رخيت " و "حنممت " . كما أن كلمة إنسان " رمتث " تدل أحياناً على أى فرد أياً كان ، كما تدل فى أحيان أخرى على العامل أو القن . ونلاحظ أيضاً ذكر الوضع الاجتماعى للأشراف فى مقدمة ألقابهم كلما سنحت الفرصة ، ولكنهم لم يشكلوا طبقة مغلقة . ولدينا أمثلة كافية لأفراد ارتقوا السلم الاجتماعى ارتقاءً حثيثاً لمجرد أن عاهل البلاد كان راضياً عنهم ويريد تقديرهم . ورغم أن حكام الأقاليم قد أصبحوا من الأشراف فى عصر الأسرة السادسة ، فإن زواج ملك من الملوك من إبنة أحد حكام الأقاليم كان ينال من هيبة الملكية الفرعونية . ولئن كان الملك وعائلته فى ظل الدولة القديمة ينتمون إلى طبقة الأشراف ، إلا أنهم كانوا يعتبرون فى واقع الأمر فى منزلة أرقى من هذه الطبقة . ولكن مع حلول الفترة الإنتقالية الأولى تم إعادة النظر فى بعض سمات الحكم المطلق التى كان يتمتع بها عاهل البلاد .

---

* إننا لا نتفق إطلاقاً مع المؤلفة فى هذا التفسير ، وذلك لأن الحضارات العظيمة لا تبنى أبداً بالسخرة ، لكنها فكرة روج لها ولاقت القبول عند البعض . (المراجع) .

** " پعت " تأتى بمعنى الإنسان الآدمى ولكن " ربعث " تعنى النبيل أو المنتمى إلى طبقة النبلاء (المراجع) .

إن النصوص المنقوشة على آثار الخاصة من لوحات وتماثيل ومقابر وغيرها ... تتضمن ـ بصفة عامه ـ عدداً من الألقاب للشخص الواحد ، بمجرد أن يتبوأ صاحبها منصباً ذا شأن فى مجتمع عصره . ومن هذه الألقاب ما هو موروث فأضحت ألقاباً شرفية فحسب . أما الألقاب الأخرى فتسجل ما شغله صاحبها من وظائف متعددة فى آن واحد ، أو تلك التى تعاقب عليها . وجرت العادة أن يحتكر الشخص الواحد بعض المناصب الإضافية ، كما شاع الجمع بين الوظائف الإدارية والاقتصادية والدينية بل والعسكرية ، رغم افتقارها إلى رباط واضح يجمع بينها . وبشكل عام فإن وظيفة واحدة من هذه الوظائف تبرز ليكون لها الغلبة والهيمنة على غيرها . غير أن المصرى غالباً ما كان يساوى بين مختلف الأعباء والمناصب ، فلا فرق عنده أن يزاول بالفعل مهنة منتظمة ، أو أن يتولى إدارة أملاك كبيرة ، أو أن يكلفه الملك أو أحد الأعيان بمهمة محددة فى زمن معين ، بل وأن يمارس ما درج عليه من أعمال التقوى والورع على سبيل المثال . ولسوف يزداد إداركنا لهذه الظاهرة لو عدنا إلى بعض البطاقات ، ودققنا فيما تحتويه من تفاصيل عن أفضال ومهارات صاحبها ، إلى جانب إطنابها فى تسجيل مهنته الحقيقية . لقد انتشر هذا التقليد انتشاراً واسعاً عبر كل العصور ، وهو خير دليل على عدم وجود حواجز جامدة بين كبريات المراتب الوظيفية فى الدولة . ومن جانب آخر فإن التعبير عن نفس المهنة الواحدة كان يأخذ أشكالاً متغيرة تغيراً جذرياً ، حسبما أراد صاحبها أن يبرز وضعه المهنى بالقياس إلى صاحب العمل ، أو الطائفة التى ينتسب إليها ، أو الطبيعة المحددة لعمله .

٢ ـ القصر ، البلاط والمؤسسات الملكية

يتحدد مفهوم القصر الملكي ووظائفه الأساسية ، في عصر الدولة القديمة ، في خمس كلمات أو عبارات . إن عبارة " پر عا " أي البيت الكبير ، أكثرها شيوعاً . وقد اقترنت عادة بعاصمة البلاد " منف " * ، وهي مقر إقامة عاهل البلاد وعائلته وخاصته . كان " بتاح شبسس " من المقربين إلى أواخر ملوك الأسرة الرابعة وخلفائهم في الأسرة الخامسة . " لقد نشأ وترعرع في صحبة الأبناء الملكيين ، في البيت الملكي الكبير ، وفي المقر الرسمي ، وفي حريم الملك " . وعبارة " پر عا " تتضمن أيضاً الأجهزة الإدارية المختلفة والموظفين القائمين على الخدمة اليومية للملك من أطباء ، ومصففي الشعر والحلاقين والمسئولين عن تجميل الأيدي والخدم على اختلاف أنواعهم والحرفيين . ومن الواضح أن القصر الملكي لم يتدخل في حياة البلاد كشخصية اعتبارية مستقلة . ومن ناحية أخرى ، فقد ارتبطت عبارة " پر عا " بالملك ارتباطاً وثيقاً . حتى صارت في آخر الأمر تشير إلى الملك ذاته ، أي " الفرعون " .

أما عبارة " ستپ سا " ، ومعناها : القصر ، فلم تظهر إلا أيام الدولة الوسطى ، غير أن هذه العبارة كانت تطلق في عصر الدولة القديمة على مقر السلطة المركزية ، وارتبطت ارتباطاً مباشراً ببعض الخدمات التي كانت تقدم للملك ، كموكب الملك ، والحرس الملكي ، بالإضافة إلى تنفيذ الأوامر الملكية .

---

* هي " انب ـ حج " أي الجدار الأبيض والتي ترجع إلى عصر الأسرة الأولى وتقع أطلالها عند قرية ميت رهينة ، بمركز البدرشين . وأطلق عليها " من نفر " في عهد الملك پيپي الأول ، من الأسرة السادسة ، وحرفه الأغريق إلى " ممفيس " والعرب إلى " منف " (المترجم) .

أما عبارة " پرنيسو " ، وتعنى الأملاك التابعة للقصر ، فهى مؤسسة اقتصادية يشرف عليها حاكم البلاد إشرافاً مباشراً . ويُعتمد على الأملاك الملكية فى تقديم الهبات والعطايا المحبوسة على الأوقاف والأفراد لاعتبارات جنائزية ودينية فى أغلب الأحيان ، ويعمل فى خدمتها أعداد كبيرة من الكهنة وبعض المدنيين ولا سيما فى الريف .

أما كلمة " عح " ، فتكتب بعلامة تصويرية * على شكل " مبنى " وأغلب الظن أنها ليست صورة لمحل إقامة الملك العادية ، ولكنها بناية تقع فى منزلة وسط بين الجوسق و المقصورة ، ولا يستخدمها الملك إلا فى القليل النادر ، وأثناء الاحتفالات لا سيما فى أعياد اليوبيل ** .

ومع ذلك فقد أشار الملك " أسيسى " *** ، فى خطاب موجه إلى مهندسه " سنچم إيب " إلى هذا الجوسق الذى أطلق عليه إسم " لوتس أسيسى " . ويقصد به البناية الفسيحة المتسعة " ، وكانت له اختصاصات

---

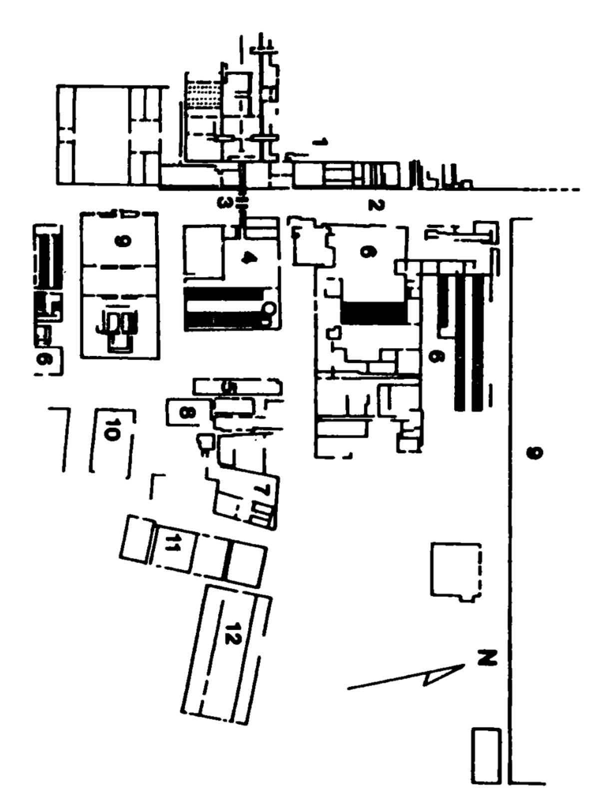
* ينبغى التمييز بين نوعين من العلامات الهيروغليفية :

١ ـ العلامات التصويرية : تتكون من رسومات تعنى إما الأشياء المرسومة ذاتها أو المعانى المرتبطة بها مثال ذلك : ⬭ وقيمتها "صوتيــــة " را " وتمثل شفتين ، وتعنى الفم أو القول .

٢ ـ العلامات الصوتية : هى فى الأصل علامات تصويرية ، ولكن تستخدم لقيمتها الصوتية دون المعنى المرتبط بها كعلامة تصويرية : ومثال ذلك ⬭ " را " وهى حرف جر بمعنى إلى ، وفى ، وفى اتجاه . والعلامة التصويرية عح ، تمثل رسم مبنى كالتالى (المترجم) .

** " الحب سد " هو " اليوبيل " أو " العيد الثلاثينى " وهو الاحتفال بمرور ثلاثين عام على حكم المَلك . وكان هذا الاحتفال معروفاً فى مصر دون شك ، قبل الأسرة الأولى بزمن كبير ، ويتم الاحتفال وفقاً لمراسيم خاصة ، يثبت فيها الملك حيويته وقوته ، ثم تشيد بعض المبانى الخاصة له احتفالاً بالمناسبة وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولى وحتى آخر أيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد .(المترجم)

*** من ملوك الأسرة الخامسة ومن ألقابه : چد كا رع (المترجم) .



شكل ٢ : رسم تخطيطى يوضح مواقع المبانى الرسمية فى وسط مدينة تل العمارنة
١ ـ القصر وحريم الشمال وحريم الجنوب ومساكن الموظفين . ٢ ـ الشارع الملكى . ٣ ـ جسر يربط بين بيت الملك وأجنحة الحريم . ٤ ـ بيت الملك . ٥ ـ دار المحفوظات . ٦ ـ المخازن . ٧ ـ الشئون الخارجية . ٨ ـ دار الحياة . ٩ ـ دور العبادة . ١٠ ـ مساكن الكهنة . ١١ ـ ثكنات الجيش . ١٢ ـ المركز الرئيسى للشرطة .

اقتصادية مرتبطة بالمقر الرئيسى للملك البلاد .

أما كلمة " غنو " ، أى " الداخل " ، فقد شاع ترجمتها بعبـــارة " المقر الرسمى للملك " ، ولكن دلالة الكلمة وأبعادها يتجاوزان الحدود الضيقة لهذا التعريف . أما من ناحية الاختصاصات ، فهى تفوق اختصاصات ما نسميه اليوم ، وزارة الداخلية . فهى تشمل الجهاز الإدارى ومجموع المكاتب معاً . وبتفصيل أدق ، فإن " غنو " شخصية اعتبارية اقتصادية مستقلة ، ويتبع جهازها الإدارى الملك شخصياً شأنها شـــأن " الأملاك الملكية " . وهى تشرف على الممتلكات الخاصة والعقارات والأغنام والعاملين ، ويوجد تحت تصرفها خزانة عامة ومخازن غلال ، ويقع على عاتقها التوجيه المركزى للإنتاج فى جميع الأملاك ولا سيما الجنائزية منها ، إلى جانب مهمة تزويد الأوقاف والعاملين بهـا بالمؤن . فوظيفتها الرقابة على إدارة اقتصاد البلاد والحفــاظ على توازنها .

نخلص من هذا العرض السريع بتركيز المهام الرئيسية فى محاور ثلاثة :

١ ـ المقر الرئيسى للملك ونفقة الأسرة الحاكمـة .
٢ ـ إتمام الشعائر الدينية الخاصة بالنظام الملكى .
٣ ـ مقر الحكومة .

يجرى القيام بالمهام الثلاث فى أماكن متقاربة وإن كانت مختلفة . ويتضح ذلك من ما تبقى من آثار مدينة تل العمارنة ، عاصمـــــة " أمنحوتب الرابع " * الذى اعتلى عرش مصر فى آواخر الأسرة الثامنـة

---

* المعروف بإخناتون . بنى لنفسه عاصمة جديدة ، المعروفة حالياً بإسم تل العمارنة فى الضفة الشرقية من النيل على مقربة من ملوى الحالية وسماها أخت آتون أى أفق آتون .(المترجم)

عشرة . ورغم معرفتنا للعديد من القصور وملحقاتها والتى ترجع إلى مختلف العصور ، إلا أن الكشف عنها لم يتقدم بالقدر الذى يسمح لنا باستنتاج الوظائف التى كانت تقوم بالمهام المشار إليها ، فأحياناً ، كان المقر الرئيسى لملك البلاد يبتعد عن المركزين الإداريين الكبيرين للبلاد وهما منف وطيبة * ، كما حدث فى عصر الدولـة الوسطى وعصر الرعامسة ** . وليس من المستبعد إذن فى هذه الظروف أن تظلّ الأجهزة الحكومية تعمل من هذين المركزين وتدير أعمالها انطلاقـاً منهما ، أما البلاط فيذهب حيثما يذهب الملك ، ولا يتخلف كبار موظفى البلاط إلا للضرورة ، وحسب المهـام التى يكلفون بها . وأضافة إلى ذلك ، فقد حدث فى فترات الحكم المطلق أن أقام كبار المسئولين فى الأقاليم مقابرهم فى الجبانة المجاورة للمقبرة الملكية . وبمرور الزمن تبدل بنيان المؤسسات وتغيرت أهميتها النسبية ، وأحياناً تطورت المصطلحات وتغيرت ، ولكن العمل كان يسير فى معظمه بالطريقة التى كانت سائدة فى الماضى السحيق دون تبديل . وهكذا حفظ لنا الزمن ، مثلاً ، حسابات توريد الخبز إلى المقر الرئيسـى للملك بمنف ، والمؤرخة بالعام الثانى من حكم سيتى الأول .

---

* إسم طيبة ، إسم متأخر لمدينة الأقصر الحالية . سبقه إلى الوجود إسم (واست) ، بمعنى الصولجان . وسميت (نوت آمون) أى مدينة آمون . ذكرها الشاعر الإغريقى هوميروس (القرن السابع ق .م) بإسم ضيبة . ويحتمل أنه نسبها إلى معبدها الذى كان يسمى (إيبة) بمعنى الحرم أو الحريم أو المتميز . إما تسمية مدينة الأقصر ، فترجع إلى العرب حيث أطلقوا على المدينة إسم الأقصرين وذلك لوجود معسكرين رومانيين . ثم تحولت الأقصرين إلى إسم الأقصر الحالى .(المترجم)

** عصر الرعامسة يغطى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين
ويبدأ برمسيس الأول ، أول ملوك الأسرة ١٩
وينتهى برمسيس الحادى عشر آخر ملوك الأسـرة العشـرين (المترجم)

وتنتشر فى أرجاء البلاد المؤسسات الملكية والمدنية أو العسكرية ، إلى جانب الأوقاف الدينية أو الجنائزية لملوك مصر الذين تتابعوا على عرش البلاد . ويعمل فى خدمتها جيش من العاملين من مختلف التخصصات ، يخضعون لسلطة الملك من خلال ممثليه كالوزير ومديرى القطاعات الإدارية ، وقواد الجيش والمشرفين على البعثات والكتبة ، إلى آخره .. إن العاملين فى المؤسسات الملكية موظفون يتلقون أجراً عينياً يستقطع من حصيلة الضرائب ، وتصرف لهم المكافآت فى المناسبات كمنحة شخصية لكل مجتهد ومجدٍ . أما الأوقاف الدينية والجنائزية فلها جهازها الخاص من العاملين الذين تعتمد مواردهم على العوائد التى يدرها استثمار ما حبسه الملك عليها من أراضٍ ومواشٍ . فبعد استقطاع الضرائب منها يتبقى لهم ما يكفى لإعاشتهم عيشة مقبولة هنية .

ويبدو أن إدارات أملاك التاج والمعابد وأعيان البلاد قد اتبعت نموذجاً مشتركاً ، إذ شاعت الوظائف المماثلة فى هذه الأوساط المختلفة . وتتولى إدارة واحدة الإشراف على العديد من قطاعات العمل فى الزراعة ، وتربية المواشى ، وتجميع المحاصيل وحصر كمياتها وتشوينها ، وإعداد الطعام ، وخدمة الأسياد ، كما تشرف على ورش النساجين ، ونجارة الأثاث الفاخر من الأبانوس ، والأساكفة ، وصناع الأوانى ، والصياغ إلى آخره . واختصت بعض الأوقاف ، بامتيازات استثنائية ، فصدرت بها مراسيم ملكية تعفيها من سداد الضرائب للدولة ، كما أعفى كل العاملين بها من أعمال السخرة أو أى عمل إلزامى صادر من جهات خارجية أو من الأجهزة المركزية .

٣ ـ المعابد وملحقاتها :
دور الحياة ـ الورش ـ الأملاك

عرفت مصر الفرعونية نوعين من المعابد : المعابد التى اعتبرت منـازل للآلهة ، ثم المعابد الجنائزية التى خصصت لإقامة الشعائر للملوك بعد وفاتهم والتى سميت فى الدولة الحديثة بـ " قصـــور ملايين السنين " .

لم تعد أصـــول الطابـع الإلهى للملكية فى حاجة إلى دليل أو برهان ، فالملك الحى يعرف بحورس ، وإذا توفى فهو أوزيريس ، وخلوده الأبدى هو أساس توازن وانسجام العالم ، والمقصود به هنا مصر . ومن ثم كان تشييد المعبد الجنائزى ، أمام الهرم الذى كان يسجى فيه جثمان الملك ، حيث وضعت خمسة تماثيل على هيئة الملك المتوفى . ومن خلال الطقوس والشعائر كانت التماثيل تطهر وتلبس الثياب وتمسح بالزيوت العطرة ، وتزين وتوضع أمامها القرابين فوق المائدة المجاورة للباب الوهمى وبذلك يسهل على المتوفى الانتقال من عالم الموتى إلى عالم الأحياء لتناول الطعام . كان الهرم والمعبد الجنائزى يشيدان على أرض مرتفعة ، أما " معبد المزار " * ومدينة الهرم فكان موقعهما فى الوادى على أرض منخفضة . وهما يشرفان على استلام مؤونة المعبد الجنائزى ، وتوفير الإقامة للعاملين وتنظيم الخدمة اليومية فى المعبد والاستعدادات الخاصة بالأعياد . ويربط بين معبد المزار والمعبد الجنائزى طريق صاعد .

---

* وهو يعرف إصطلاحاً بمعبد الوادى (د. أحمد فخرى : الأهرامات المصـرية ص ٢٩ (المترجم) .

ومنذ فجر الأسرة الثالثة ، شيدت مجموعة جنائزية فريدة فى نوعها فوق هضبة سقارة * الصحراوية احتفالاً متجدداً إلى الأبد بأعياد اليوبيل للملك زوسر . وتتكون المجموعة من مبانى وهمية ، وكأنها قد أعدت بالأحرى لاستقبال جيش من الأشباح وليس فريقاً من الموظفين النشطين . ومع مطلع الأسرة الرابعة أخذت هذه المؤسسات الفسيحة ، تغطى مساحات شاسعة فى دهشور ، والجيزة على وجه الخصوص . وقد وصلت إلينا محفوظات معابد الأسرة الخامسة الجنائزية فى أبو صير ، وتدور أساساً حول حسابات المعابد وهى لا تعتبر سجلاً لاقتصاديات هذه الأوقاف ومكانتها فى اقتصاد البلاد فحسب ، بل هى تقدم لنا صورة للحياة داخل المعابد ونشاط الموظفين العاملين فيها . وقد اعتمدت هذه الأوقاف على الإمدادات الغذائية التى توفرها لها الأملاك الجنائزية التابعة للملك ، أو لغيره من الملوك ، بأمر من مقر الملك ومعبد الشمس الخاص به . والغرض من هذه الموارد من الأغذية والمنسوجات ، هو تلبية احتياجات الملك بعد وفاته ، كما كانت تستخدم أيضاً لسد الاحتياجات الغذائية للعديد من العاملين فى هذه المؤسسات .

تتضمن الخدمة اليوميـة فى المعابد إقامة الشعائر مرتين يومياً . وهى تنسق مع الوجبتين اللتين كان الملك المتوفى يتناولهما فى حياته الدنيا . ثم تزين التماثيل الخمسة ، وتقرأ الطقوس ، ويطهر المكان مرات ومرات ، ويرش بالماء . كما تشتمل على خدمة دنيوية هى إحضار القرابين وإعدادها . وتتكون هذه القرابين من بعض الطيور وعددها أحد عشر وأطيب أجزاء العجول وعدد كبير من أرغفة الخبز والجعـة إلى آخره ... كما تمتد الخدمة اليومية إلى توزيع المؤونة المقدمة للمك وأعمال

* سقارة هى جبانة منف (ميت رهينة) إسم قديم مشتق من إسم الإله " سُكِر " الإله الحارس لهذا المكان . (المراجع) .

حراسة المبنى ومحتوياته ، وتسجيل بيانات قسم المحفوظات . وينقسم العاملون فى المعابد إلى خمس مجموعات يباشرها خمسة رؤساء . يقوم كل منهم بالخدمة بالتناوب وفقاً لجداول مازال بعضها باقياً حتى يومنا هذا . وتنقسم كل مجموعة إلى قسمين ، ويضم كل قسم نيف وعشرين شخصاً يقودهم مسئول . وإلى جانب هذه الجماعة المنظمة ، كان يقوم على خدمة المعبد الكهنة المطهرون والحرفيون ومصففو الشعر والفخاريون والطباخون ومنظفو الملابس والملاحون والحمالون والأطباء والمنشدون ، بحيث يصل مجموعهم الكلى إلى ما يقرب من ثلاثمائة فرداً .

ويحتشد جمع كبير فى مقاصير مقابر الأفراد حول المجموعات الجنائزية الملكية ، ومهمتهم توفير القرابين لرجال البلاط وكبار الموظفين وعائلاتهم . وكثيراً ما تستقطع هذه القرابين من القربان الإلهى المقدم للمعبد الملكى المجاور . وقد يتمتع الأفراد الذين فضلهم الملك وقربهم إليه بنوع من الإيرادات للحصول على الأطعمة اللازمة لهم بعد وفاتهم ، ودفع رواتب " خدام الكا " * المكلفين بهذه الشعائر . وقد تأتى هذه الإيرادات ، شأنها شأن موارد المعابد ، فى استثمار الأملاك الجنائزية المنتشرة فى أرجاء البلاد .

أما معابد الرعامسة الجنائزية فى طيبة ، فكانت فى منزلة تجمع بين المعابد الجنائزية فى الدولة القديمة والدولة الوسطى من ناحية ، والمعابد الإلهية من ناحية أخرى . إن الرسم التخطيطى الذى شيدت على أساسه هذه المعابد شبيه بالرسم التخطيطى لمعابد الآلهة ، كما تضم قصراً مصغراً ، لا غنى عنه لاحتفالات اليوبيل وغيرها من الاحتفالات التى تقام داخل الحرم المقدس . وإضافة إلى ذلك ، كانت المعابد تمثل مراكز

* وهم خدم تماثيل القرين (المراجع) .

اقتصادية هامة ، ومثال ذلك الرامسيوم * ، ومراكز إدارية كما هو الحال بالنسبة لمعبد مدينة هابو ** .

وكانت المعابد الإلهية الكبرى أيضاً مركزاً لمؤسسات شاسعة متنوعة الاختصاصات . لقد اختص كل معبد ذو شأن ، بقصة للخلق كما تخيلها كهنته ، منذ أقدم الأزمنة ، وشيدت هذه المعابد فى نفس المكان الذى ولد فيه العالم طبقاً لهذه القصة . وبفضل المحفوظات المحلية والنصوص المنقوشة على الجدران ، عرفنا هذه الأحداث التى وقعت منذ الأزل . فالشعائر اليومية والشعائر التى تقام فى مواسم محددة تكريماً للآلهة المحليين الرئيسيين فى كل مكان ، تسير طبقاً لطقوس قريبة الشبه بتلك التى كانت تستهدف ضمان خلود الملك المتوفى . إذ يحل تمثال الإله محل تمثال الملك ، ويقبع حبيس الناووس *** فى أعماق المعبد ، ولا يحق لأحد أن يفتح أبواب الناووس إلا أعظم الكهنة مرتبة . إذ لا يجوز لغيرهم الدخول إلى هذا المكان الذى يعتبر أكثر أماكن المعبد قدسية . ويشرف الكهنة على تزيين التمثال وإلباسه ووضع الحلى من حوله وإطلاق البخور وتقديم أشهى الأطعمه الطازجة بينما ترتفع أصواتهم بتلاوة الشعائر المقدسة اليومية . وفى نفس الوقت تجرى مراسم أخرى فى أجزاء المعبد المختلفة ، كنقل التمثال أو مركب الإله والطواف به فوق سطح

---

* الرامسيوم ، معبد شيده رمسيس الثانى ، فى البر الغربى من مدينة طيبة . (المترجم) .

** معبد مدينة هابو ، شيده رمسيس الثالث ، فى البر الغربى من مدينة طيبة (المترجم) .

*** هى مقصورة لها باب يغلق ، تحتوى على تمثال للإله الرئيسى للمعبد (المراجع) .

المعبد ، أو خارجه * ، وتصدح الموسيقى وتتلى أناشيد الطقوس ، وتعرض الأسرار الدينية ، وتجرى أعمال الكهانة وقراءة أحوال الغيب .. وتتولى جماعات الكهنة بالتناوب آداء هذه المهام ، كل حسب كفاءته ، وحسب درجة علمه الربانى ، يعاونهم فى بعض هذه الممارسات بعض الأفراد غير المنتمين إلى السلك الكهنوتى الذين يتم اختيارهم من أعيان المنطقة التى يقع فيها المعبد .

وتنكب فئات عديدة من الكهنة على آداء فرائض الشعائر اليومية ويقومون بهذا الدور الكهنوتى نيابة عن الملك . ولكن عندما يعهد إليهم تنفيذ مهام أساسية أخرى ، فإن ذلك يتطلب قدراً كبيراً من البراعة والفن والقدرات الذهنية المتميزة . ومن هذه الأعمال نسخ وتحرير الكتب المقدسة فى " دور الحياة " . لقد تخرج من هذه المؤسسات أجيال وأجيال من الكتبه الذين تدربوا على نسخ المؤلفات الدنيوية والدينية القديمة ، وتصنيف وثائق جديدة ، والبحث فى المحفوظات المقدسة عن وصفات طبية وسحرية وطلاسم فلكية . كما كانت هذه المؤسسات مركزاً لتعاون العلماء على اختلاف مشاربهم . وقد سبقت هذه المؤسسات مثيلاتها من أديرة القرون الوسطى فى الغرب الأوروبى ومهدت لقيامها . وعلى مسافة غير بعيدة من " دور الحياة " ، كانت تقام معامل علمية تضم المتخصصين الذين تفرغوا لاختراعاتهم أو لصناعة العطور والدهون والتعاويذ .

* والطواف بالمركب إلى وقتنا هذا ـ هو من مراسم الاحتفال بمولد سيدى يوسف أبو الحجاج بمدينة الأقصر (المراجع) .

وإلى جانب هذا العالم الملىء بالأسرار تنشط مكاتب هذه المعابد وإداراتها ، ومخازنها وورشها فتعكس لنا صور، مغايرة تماماً . ورغم قرب هذين العالمين من الناحية المكانية ، فالمسافة التى تفصل بين طبيعة نشاط كل منهما شاسعة . وتشكل المكاتب والمخازن والورش الركائز المادية التى لا غنى عنها لعالم المعابد ، وتستأثر هذه المكاتب الإدارية بالإشراف على عوائد أملاك الآلهة واستثمار الأراضى المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، والعناية بالماشيـة ، وامتيازات استغلال المناجم إلى آخره . كما تتولـى إعداد حسابات المحاصيل والموارد التى تجلبها الحملات ، وحصر الغنائم التى جمعها الملوك فى حروبهم الخارجية ، وكل هذا تمجيداً للإله وتبجيلاً له . وإضافة إلى ذلك ، فقد كان من المألوف أن يضطلع العديد من المسئولين عن هذه المكاتب أيضاً بالأعباء التى تخص الإدارة الحكومية . حيث كانوا يحلون محلها تطوعاً فى القيام بكثير من مهامها وبذلك اتسعت دائرة نفوذهم وتعاظمت . وعند اكتشاف سرقات المقابر المشهورة فى أواخر عصر الرعامسة ، كانت المحاكمات تنعقد فى نطاق معبد آمون بالكرنك . وبازدياد الدور السياسى لمسئولى هذه المكاتب اضطر ملوك مصر إلى السعى دوماً إلى استرضائهم والحصول على اعترافهم بشرعية اعتلائهم عرش البلاد . كان هؤلاء المسئولون يحتفظون بسجلات ذات أغراض متنوعة ، بل ويشرفون على العديد من المستودعات ومخازن الغلال ، حيث يتم تشوين وتخزين المنتجات الواردة من املاك الآلهة . ومع ذلك فقد فرضت الدولة الضرائب على ما تغله تلك الممتلكات الضخمة التى يستطيع المرء أن يحكم على ضخامتها من واقع الهبات التى أنعم بها رمسيس الثالث على أهم معابد مصر .

ويعمل جيش من الفلاحين والعمال والحرفيين والخدم فى أراضى المعابد وفى حرمه ويقومون بنفس أعمال أقرانهم فى الأملاك الملكية فى إنتاج المواد الغذائية والمواد المصنعة . كان العمل فى ورش أملاك آمون

فى الدولة الحديثة له سحر خاص ، فالعديد من كبار الموظفين الذين شغلوا فيها مناصب كبيرة اهتموا بنقل مشاهد من هذه الأنشطة على جدران مقاصيرهم الجنائزية . وفى عهد رمسيس الثالث كان عدد من يعمل فى الأملاك التابعة لآمون يتجاوز المائة ألف شخص .

٤ ـ الجيش والبحرية

إننا لا نعرف سوى القليل عن دقائق تكوين الجيش ، لا سيما فى أقدم عصوره . لقد اقترنت الألقاب الشرفية بالوظائف الحقيقية حتى استحال علينا إعادة ترتيب التسلسل الهرمى للرتب العسكرية التى تشير إليها . لذلك كان علينا أن نستند إلى السير الذاتية التى دونها الجنود ، وخاصة الضباط ، لنتعرف على مكانتهم فى المجتمع ، وفترات حياتهم الجديرة بالاهتمام .

فإذا صحت رواية " ونى " * كبير موظفى قصر " بيبى الأول " ، فإن مصر لم تعرف على مايبدو الجيوش النظامية الدائمة فى عصر الدولة القديمة . إذ يقول " ونى " فى روايته " ردّ جلالته " العامو " ** الساكنين على الرمال على أعقابهم . وجمع جلالته قوة ضخمة (من الرجال) فى صعيد مصر ـ من جنوب الفنتين وحتى شمال أطفيح ، ومن إدارتى الوجه البحرى ، ومن قلاع سدچر وخن سچرو ، ومن أهل النوبة فى أرتى ومدچا ويام و واوات و كاأو ، ومن الليبيين ، ولقد أرسلنى جلالته على رأس هذه القوة . أما حكام الأقاليم وحاملو أختام ملك الوجه البحرى و " الأصدقاء الوحيدون " فى القصر الكبير ومديرو ورؤساء أملاك الوجهين القبلى والبحرى ورؤساء القوافل من رجال البلاط ومديرو الإدارات فقد خرجوا جميعاً على رأس قوات الوجهين القبلى والبحرى والأملاك والمدن التى يديرونها وأهل النوبة المقيمين فى هذه المناطق . "

---

* نقش " ونى " سيرته الذاتية على جدار مقبرته فى ابيـــدوس (العرابة المدفونة ، حالياً) وهو محفوظ الآن بمتحف القاهرة .(المترجم)

** العامو هم قبائل أسيوية سكنت الصحارى إلى الشرق من مصـــر (المراجع)

ولم يحترف أى من الرجال المذكورين مهنة الحرب ، سواء كانوا جنوداً عاديين أم قادة عسكريين ، فالقوات التى يجرى تجنيدها بمعرفة المسئولين الإداريين تظل تحت قيادتهم وتابعة لهم فى المعتاد . أما الجيش الذى جنده الملك شخصياً ، فقد تسلمه " ونى " لصد هجمات الأسيويين عند حدود البلاد الشرقية . ونجد فى جميع هذه القوات بعض الجنـود الأجانب .

وتنطوى هذه المبادرة الشاملة على قدر كبير من التلقائية كما يتضح من بقية النص :

" رغم أننى لم أكن سوى كبير موظفى القصر الملكى ، نظراً لما اشتهرت به من سلوك حازم وصارم . فكنت لا أسمح لأى شخص أن يتشاجر مع رفيقه أو يستولى على خبز أو نعال أى عابر سبيل أو يسرق ملابس من مدينة أو يسلب عنزة من صاحبها (...) وكنت أقوم بالتفتيش على كل فرقة من الفرق العسكرية . فكنت أول من فتش عليها إذ لم يسبقنى مفتش آخر " .

وفى عصر الأسرة العاشرة جـاءت التعاليم الموجهـة إلى " مرى كارع " * لتروى كيف نهب الجنود جبانة " ثنى " وعاثوا فيها فساداً .

ومع حلول الفترة الإنتقالية الأولى ، أصبح التجنيد محلياً تحت إشراف حكام الأقاليم وحل محل المبادرات الملكية . فانقسمت البلاد إلى مجموعات من الأقاليم المتحالفة ، تتناحر فيما بينها . وقد أمكن لنا التعرف على تشكيل القوات العسكرية ومواصفاتها بفضل نماذج خشبية

---

* وهى التعاليم التى وجهها الملك خيتى الثالث (؟) من الأسرة العاشرة إلى أبنه الملك مر كا رع أحد ملوك الأسرة العاشرة .(المراجع)

عثر عليها فى مقبرة أحد حكام إقليم أسيوط * تمثل هذه النماذج فرقتين يتكون كل منهما من أربعين فرداً : فرقة من المصريين حاملى الرماح والتروس ، أما الفرقة الأخرى فهى من النوبيين رماة السهام . أما فى عصر الدولة الوسطى فنستمد معلوماتنا عن الجيش وتنظيماته وأساليبه من سلسلة القلاع الجبارة الواقعة عند الجندل الثانى . وتعطينا عمارة هذه القلاع ، فكرة عن فنون التحصينات فى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، وعن ضخامة بعض التجمعات السكانية التى تعيش فى كنفها . وتروى بعض أوراق البردى أن هذه التحصينات كانت تشكل نظاماً دفاعياً متكاملاً ، له قيادة موحـــدة مركزها فى مدينـــة بوهين ** . إن اكتشاف مخزن أسلحة فى مدينة مرقسة *** ، قد ساعد فى التوصل إلى تقدير عدد أفراد الحامية العادية فى المدينة بنيف وسبعين رجلاً . منهم ٣٥ من حاملى الحراب و ٣٥ من رماة السهام . وكشفت تحصينات أخرى عن أرقام مشابهة تتراوح بين خمسين ومائة رجل .

وفى فجر الأسرة الثامنة عشر سجل لنا ضابط بحرى يدعـــى أحمس **** شهادات مباشرة عن طرد الهكسوس والإستيلاء علـــى

---

* هو مسحتى . والنماذج موجودة فى المتحف المصرى بالقاهـــرة (المترجم) .

** تقع مدينة بوهين شمالى الجندل الثانى (المترجم) .

*** تقع مدينة مرقسة عند الجندل الثانى (المترجم) .

**** وهو أحمس بن السيدة أبانا ، وسجل شهادته فى مقبرته فى مدينة الكاب قرب أدفو . وكان من قواد الملك أحمس بطل تحرير مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة ١٨ (المترجم) .

عاصمتهم أواريس * . إذن فالجيش والأسطول متعاونان تعاوناً وثيقاً ، ويستحيل الفصل بينهما . فهما يشتركان فى المعارك الحربية فى تنسيق تام. ومن المؤكد أن ما يرويه أحمس إنما يستهدف إبراز مآثره ، وما ناله من مكافآت كذهب " الشجاعة " ، والأرض التى منحت له وما حصل عليه من الأسرى . وقد وردت قائمة بأسماء هؤلاء الأسرى فى ملحق على شكل وثيقة بملكيته لهؤلاء العبيد ، وهم تسعة رجال وعشر نساء .

ولما شن ملوك الدولة الحديثة حملاتهم العسكرية الكبرى فى آسيا ازدادت أهمية الجيش ، وتضخم تكوينة وتشعب . كان من المعتاد أن يتولى الملك شخصياً قيادة الجيش ، ثم يعين على رأسه قائداً عاماً تعاونه هيئة أركان حرب كاملة . وينقسم الجيش إلى عدة فيالق ، كل فيلق فى حماية أحد كبار آلهة مصر ورعايته . ومع دخول الحصان والعجلة إلى مصر خلال الفترة الانتقالية الثانية ، كان الجيش يتشكل من سلاحين رئيسيين : سلاح المشاة ، ويتكون من سرايا تضم كل سرية ما بين مائتين ومائتين وخمسين مقاتلاً . وتتشكل كل سرية من أربعة أو خمسة فصائل ، ثم سلاح المركبات . وفى عهد رمسيس الرابع بلغ عدد السرايا عشرين سرية ، أى حوالى خمسة آلاف مقاتل . وتنتشر نصوص تاريخية مهمة فى طول البلاد وعرضها تشرح بالتفصيل عظمة فنون الحرب المصرية أما ما تبقى من آثار أساسات العمائر العسكرية الملكية كالإسطبلات والمعسكرات ومخازن السلاح وحظائر المركبات الحربية

---

* كانت مدينة أواريس ، تسمى فى اللغة المصرية القديمة " حة وعرة " وهو إسم بقى حتى الآن فى إسم حوارة ، وحوّره الإغريق إلى اواريس . ويرى البعض أنها تانيس (صان الحجر) ولكن يرى البعض الآخر أنها مكان قنتير ، الحالية (المترجم)

فهى منتشرة فى كل مكان تقريباً ولا سيما فـى " بر رعمسـو " * وطيبة . وقد أقيمت سلسلة من التحصينات فى اتجاه الشرق الأدنى شمال شبه جزيرة سيناء ، وعلى الحدود الليبية أيضاً جهة الغرب بيد أنها كانت أقل ضخامة من سابقتها . وفى النوبة أقام غير المصريين فى مستعمرات هى أشبه بالمدن المحصنه . كما بدأت البحرية تلعب دوراً متعاظماً سواء فى نقل الجنود إلى موانىء سوريا وفلسطين أو فى الحروب ضد شعوب البحر ** . وأخذت تتزايد نسبة المرتزقة الأجانب القادمين من كل مكان بشكل مطرد . وبعد تسريحهم من الخدمة العسكرية كانوا يندمجون مع أهل البلاد ويتحولون إلى جزء لا يتجزأ منهم . وهناك أدلة كثيرة وعديدة على ذلك . فقد تطبعوا بطابع المصريين وعاداتهم ، وتسمـوا بأسماء مصرية تشير إلى أصولهم أو أصول ذويهم ، ولكنهم أدخلوا معهم إلى مصر آلهة جديدة . أما المصريون المتصلون بهم فسرعان ما عبدوا الآلهة التى كانوا يعبدون . ومُنح المحاربون القدماء اعتباراً من عهد

---

* تقع فى شرق الدلتا ومعناها ، دار رمسيس . وظهرت كعاصمة سياسية لمصر فى عهد رمسيس الثانى . ويفهم من جدل طويل حول تعيين مكانها ، أنها كانت تمتد وتضم ضياعها ما بين قنتير والختاعنة الحاليتين فى شرق الدلتا على الفرع التانيسى للنيل (قرب عاصمة الهكسوس القديمة أواريس) (المترجم) ..

** شهدت الأعوام بين ١٤٠٠ و ١١٠٠ ق. م تغييرات وتعديلات عظيمة فى المنطقة الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط والبلاد التى إلى الشرق منه . كان هذا العصر عصراً دولياً جلب شعوباً أنتهى بها الأمر فيما بعد فاستقرت فى أوروبا وأصبحوا ما نسميهم باليونان واللاتين ... كانت هذه الشعوب الجديدة تنحدر تدريجياً من وطن هندو أوروبى فى الشمال الشرقى ... وأصبحوا أصحاب السلطان فى المناطق الساحلية فى شرق البحر المتوسط . وقد اسمتهم النصوص المصرية " الشماليون الذين فى جزرهم " ونسميهم شعوب البحر ... ونستطيع أن نتعرف على البعض منها من خلال النصوص الهيروغليفية والمسمارية مثل الفلسطينيين ... ونعرف البلاد التى أصبحت مستقراً لبعض منهم مثل الشردن والشكلش الذين استقروا فى سردينا و صقلية .
(جون ولسون ، الحضارة المصرية . ترجمة د. أحمد فخرى ص ٣٩٠ ـ ٣٩١) (المترجم) .

رمسيس الثانى دخلاً سنوياً وأقطعوا الأراضى . ومع مرور الزمن تزايد نفوذ طبقة العسكريين ليصبحوا أصحاب السلطان وآداته . فلا غرابة إذن أن يصير أحد القادة العسكريين * فرعوناً ، وذلك فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة .

وأصبح للزى العسكرى مكانته وهيبته ، فكان يثير شيئاً من الإنزعاج والقلق فى أوساط بعض فئات الموظفين . وإذا كانت غاية العمل الأدبى المعروف بإسم " هجو المهن " والذى يرجع إلى الدولة الوسطى هو تقريظ مهنة الكاتب والإعلاء من شأنها على حساب المهن اليدوية الأخرى ، فقد أضيفت حرفة الجندية اعتباراً من الدولة الحديثة إلى هذه القائمة . ونعتت بأوصاف منفرة ، وإذ يحذر المؤلف أيضاً قراءه من الإنخراط فى سلك الكهنوت يتضح أنه لا يستهدف سوى محض دعاية تعضيضاً لكتبة المستقبل فى اختيارهم المهنى ، فلا غرو إذن أن نجد قدراً من التحيز فيما يقدمه من أوصاف .

---

* هو الملك حور محب الذى ورث حكم البلاد إلى زميله الضابط رمسيس الذى أصبح فيما بعد الملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة (المراجع) .

٥ ـ الأحرار والأقنان

إن الأطر الاجتماعية المهنية التى سبق تحديد معالمها ، تضم القسم الأكبر من المصريين ، ومع ذلك فمن الأهمية بمكان أن نحدد قدر استطاعتنا أوضاع عامة الشعب داخل المجتمع المصرى ، ونبين مختلف اللوائح المنظمة لها . وبعد ذلك يمكننا القيام بدراسة السكان اعتماداً على ما يؤدونه من أعمال . إننا فى الغالب لا نعرف من عامة الشعب سوى القليل ، فالأثر الذى تركوه عن وجودهم لا يُذكر ولا يُعتد به . كانت الفاقة والأمية من نصيبهم ، وتواروا بعد وفاتهم فى مدافن بدائية مجهولة الهوية . والأهم من ذلك أنهم لم يرووا شيئاً عن حياتهم أو أحوالهم . حقيقة إن الخط الفاصل بين من خلفوا شيئاً للأجيال اللاحقة وبين من سقطوا فى طى النسيان هو خط رفيع جداً ، وتغير بتغير العصور ، وبالصدفة التاريخية المرتبطة بعملهم . فالأكواخ المتواضعة التى سكنتها الجماعات التى عاشت على أطراف الصحراء استطاعت أن تقاوم معول الزمن وكثافة المدن الزاحفة ، وصمدت أكثر من منازل الميسورين التى شيدت فى الوادى رغم أن هذه الأكواخ قد شيدت من الدبش بسبب ندرة الماء . وحيث أن هذه العمالة من حيث تعريفها ، هى محور كل نشاط فى البلاد ، فقد أدرجت فى صدر السجلات التى تم اكتشافها فى شكل تقديرات عامة أو قوائم تفصيلية بأسمائهم . لقد تم تسجيل هذه العمالة تسجيلاً دقيقاً وكانت محل رقابة متكررة ، وبسبب كثرة أعدادها فقد كانت محل فخر واعتزاز المشرفين عليهم . لقد اشتهرت هذه العمالة بالمهارة والتفانى والإخلاص ، فوُضعت أحياناً صور أفرادها وأسماؤهم بجوار سادتهم على جدران المقابر .

ولم نعثر على إية سجلات فى فترة الدولة القديمة تتعلق بالسكان الذين خضعوا لأعمال السخرة ومن وقعت على كاهلهم مهمة تنفيذ كافة

أعمال الإنشاءات الكبرى فى ذلك العصر مثل شق القنوات الضرورية للزراعة ، وبناء مراكز العمران الكبرى ، وتشييد مدينة منف ، أول عاصمة عرفتها مصر ، وبناء الأهرامات ومجموعاتها الجنائزية . كما محيت تماماً كل ذكرى للفلاحين والخدم . أما أسرى الحرب فقد احتفظوا فى كثير من الحالات بصورهم الرمزية وأعدادهم محفورة على الحجر . ولا يستبعد إضافة أعداد من هؤلاء الرجال ونسائهم إلى جانب جموع العمالة الماهرة والخدم من المصريين فزادت من أعدادهم .

إما فى عهد الدولة الوسطى ، فقد حفظ لنا الزمن العديد من السجلات الإدارية الكاملة المتكاملة التى تلقى الضوء على أوضاع أكثر فئات المجتمع معاناة . فالعمال غير المهرة فى المؤسسات الملكية أو الدينية أو المجلس البلدى أو لدى الأفراد ، كانوا يعملون فى الحقول تارة ، أو فى أعمال الإنشاءات تارة أخرى ، حسبما تقتضيه المواسم أو الحاجة إليهم . وكان من الأمور الشائعة أن يرسلهم المشرفون عليهم من نقطة إلى أخرى للمشاركة فى تشييد مبنى عام أو دينى . وعندما كانوا يرحلون إلى أماكن بعيدة كانت السلطات الإدارية تتولى إمدادهم بنصيبهم من الخبز والجعة . ويطلق عليهم عدة أسمـــاء : " رمث " أو " منيـــو " أو " حسبـــو " التى تعنـــى " الذين تم حسابهـــم " أو " إحصاؤهم " * . ومن هنا فإن المقصود بهذه التسمية هو خضوع هذه العمالة لأعمال التفتيش الدورية . ويتولى جهاز إدارى خاص الإشراف على هذه العمالة التى يصعب القول يقيناً ما إذا كانت عمالة حرة أو استرقاقاً .

---

* يلاحظ التشابه الواضح بين الكلمة المصرية القديمة والكلمة العربية (حسب) . وعلامة الجمـــــع فى اللغة المصرية القديمة كما هو الحال فى اللغة العربية هى (الواو) . (المترجم) .

أما خدم الملك أى " حمو نسو " ، فقد كانوا يشكلون فئة غير مميزة المعالم ، شأنها فى ذلك شأن الفئة السابقة . وتشمل هذه التسمية أرقى خدم الملك وأرفعهم شأناً ، جنباً إلى جنب مع أكثرهم تواضعاً وأقلهم شأناً . فقد تضم هذه المجموعة الأخيرة خدم المنزل ، كما تضم العمال والحرفيين المتخصصين . وقد يصدر قرار بتكليفهم بالعمل فى مختلف المؤسسات والأوقاف أو لدى أفراد عاديين لتنفيذ مهمة تتطلب مهارة نادرة ويبدو أن وضعهم القانونى يشبه وضع الموظفين فى الوقت الحالى ، مع ملاحظة أنه لا مجال أمامهم لرفض تنفيذ أى تكليف أو مأمورية .

وننتقل إلى الفئة الثالثة التى يشار إليها بكلمة " سمدت " وتضم فى معظم الأحوال جماعات معاونة فى مجالات مختلفة : كالمعابد والمؤسسات الملكية ومختلف الممتلكات إلى آخره ، ويعمل أفراد هذه الجماعات كمعاونين لعمال عاديين . ومن الواضح أنهم لم يكن لهم وضع اجتماعى رفيع . ومع حلول الدولة الحديثة ، يصبحون فى مصاف العامل أو بالعكس ، حسب الظروف ، مما يستبعد أى شبه استرقاق .

وننتقل إلى فئتين أخيرتين كانتا دون شك محرومتين من الحرية ، وهما أسرى الحرب والمحكوم عليهم طبقاً للأعراف مع عائلاتهم . أما أسرى الحرب فمن المعتاد أن يلحقوا مباشرة بالعسكريين الذين أسروهم . وشاهدنا أمثلة على ذلك بالنسبة لأحمس فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة ، أو يتم ربطهم بالإدارة المنوط بها توزيع العمالة وهى " مكاتب عمل " حقيقية . أما الخاضعون للسخرة ثم هجروا أعمالهم ، أو من تركوا مواقعهم وفروا ، والمخالفون والمدينون المشاكسون واللصوص والهاربون والمجرمون ، فهؤلاء جميعاً يقدمون للمحاكمة ويسجنون بعد إدانتهم فى " السجن الكبير " ، ويتحولون إلى وضع شبيه بوضع الأرقاء ، فيتم توريثهم ، كما يمكن التنازل عنهم للغير أو بيعهم . وما

يصيبهم يصيب أفراء أسرتهم ، وإذا كانوا يملكون خدماً يعهد بهؤلاء الخدم إلى سيد آخر . أما الموظفون الملحقون بخدمة أحد السادة أو الذين اقتناهم ، فيتم تسجيلهم تسجيلاً دقيقاً شاملاً : الإسم والجنس ولقب العائلة والسن التقريبي - حتى وإن كان الشخص طفلاً أو حدثاً ، بالغاً أو شيخاً . كما يذكر أحياناً الأصل والتخصص وحصر بأفراد الأسرة .

وإذا كانت سجلات الدولة الحديثة لم تتضمن الكثير عن العمالة المسترقة فلأن الأوضاع قد تبدلت تبدلاً كثيراً دون حدوث أى تغيير جذرى فى نظام المؤسسات . أما من تبقى من نسل قدماء أسرى الحرب وذريتهم ، فقد اندمجوا فى مجتمع الشغيلة العاملة ، وبلغوا أعلى المناصب وأرفعها ، ولكن تدفق الأسرى الجدد لا يتوقف ، إنهم غنائم الحملات العسكرية الظافرة ، أو يمثلون الجزية التى تقدمها البلدان الخاضعة لهيمنة فرعون مصر على شكل أسرى . وبالنسبة للأرض ، فيعمل فيها فلاحون لا يحسدون دائماً على حالهم ، وإن كان من الواضح أنهم يتمتعون بقسط كبير من الحرية ، كما يقوم العمال بتشييد العمائر . وهؤلاء العمال هم بمثابة موظفين فى خدمة الدولة . ولا وجه للمقارنة بينهم وبين العمال غير المهرة الذين عاشوا فى عصر الدولة الوسطى . ونلاحظ فى هذه الفترة ، توفر النصوص التى تتضمن عمليات بيع الأرقاء وامتلاكهم أو تقديمهم كهبة . وقد عرف الأرقاء فى اللغة المصرية القديمة بالألفاظ التالية : حسم / حمت * ، وباك / باكت * . وظلت الأشغال الشاقة سارية لمعاقبة كل من اقترف جرماً . وتنفذ العقوبة إما داخل مؤسسات حكومية أو بمعرفة الأفراد . أما أجراء فرعون العاملون فى أملاكه أو فى أملاك المعابد ، فلم تكن أعدادهم بالغة الضخامة .

---

* التاء هى علامة التأنيث فى اللغة المصرية القديمة كما هو الحال فى العربيــــة (المترجم) .

الفصل الثانى

الأنشطة المختلفة للمصريين القدماء

لم يهتم المصريون بتدوين يوميات تسجل حياتهم الخاصة ، ومن ثم فغالباً ما يصعب علينا تصور نشاطهم اليومى . ومع ذلك فقد احتفظت بعض القيادات المهنية فى المعابد ، أو فى مواقع العمل ، بكشوف المستخدمين وبمذكرات كاملة شاملة إلى حد كبير حول سير العمل ونقل المؤن وغياب العاملين وأسبابه ، إلى جانب مختلف الحسابات الأخرى ، فصار فى إمكاننا متابعة نشاط أحد الكهنة أو أحد العمال منذ اللحظة التى يستيقظ فيها فى الصباح حتى يأوى إلى فراشه فى المساء . وكان من المفترض أن تقتصر معلوماتنا على الأنشطة المهنية ، ولكن لا يوجد فصل بين حياة المصريين القدماء المهنية وحياتهم العائلية أو الاجتماعية . فنقرأ أحياناً فى السجلات الإدارية بيانات ذات طابع خاص محض ، تسمح بترتيب صور الحياة اليومية فى نسق مترابط ترابطاً نسبياً . ولا ينسحب هذا بالطبع على كافة الفئات المهنية فى المجتمع ، وحسبنا أن نعرف أحياناً طبيعة العمل الذى أنجزه أحد الأشخاص فى لحظة من لحظات حياته . فهل كنا نطمع فى أكثر من ذلك ؟ ورغم ثغرات التراجم الذاتية وتحيزها الواضح ، إلا أنها توفر لنا ما يكفى من المعالم التى تساعدنا على تصور خصائص وظيفة بعينها ، أو الترقيات فى سلم الوظائف . وقد تصادفنا فى الأعمال الأدبية أوصاف للنشاط اليومى لأحد الأبطال ، وهى أوصاف تتسم أحياناً بحيويتها وجدتها . أما بعض النصوص الأخرى ، ذات الطابع الرسمى ، فتعدد مناصب الأعيان فى الدولة ، وتوضح لنا التقاليد المتبعة .

١ ـ الملك ووزيره

إن فرعون ابن الآلهة ووريثهم . وهو يعود إليهم بعد وفاته . إن فرعون كائن فريد وهو جوهر الوجود : فهو المسئول عن نسمة الحياة فى أرجاء مملكته ، وعن غذاء ابنائها ، وبفضله يعم السلام ويسود الإنسجام فى ربوعها . أنه ركيزه وأساس كل الصفات وكل السلطات اللازمة لضمان استمرار حياة رعيته ، وامتيازاته امتيازات دينية ومادية فى آن واحد . ولكن صورته تتبدل بتبدل أوضاع حكومته ، وبنجاح أو فشل سياسته . إنه الكاهن الأول والأعظم ، والقابض على أصول الملكية فى تمامها وكمالها . وإلى جانب ذلك ، فهو رجل دولة ورجل حرب .

عرف المصريون منذ الدولة القديمة التقاليد التى تنظم مراسم الاحتفال بتزيين الملك . واستلهموا منها الطقوس التى أحاطت بتماثيل فرعون بعد وفاته فى معبده الجنائزى . إنها تعبير مختصر لهذه المراسم . ويؤكـد ذلك ، المشاهد التى نراها فى مقبرة " بتاح حوتب " * ، أحد رجال البلاط ، أثناء فترة استيقاظه فى الصباح . ويميل علماء الآثار الفرنسيون إلى مقارنة هذه المشاهد بما كان يحدث صباح كل يوم فى بلاط قصر " فرساى " . وقد سجلت حوليات الدولة القديمة أهم الأحداث وأبرزها ، كأعياد اليوبيل وغيرها من الأعياد ، مرتبة ترتيباً زمنياً وفى كل عام على حدة . وجاء تسجيلها مقترناً بالنظم الملكية والأوقاف والهبات والقرابين الورعة وتشييد الهياكل والقصور والتحصينات وصناعة التماثيل والمراكب الإلهية أو الملكية وإجراءات التعداد وشن الحملات العسكرية وحصر الأسرى والغنائم . وتدون هذه الأحداث وفقاً لظروفها

---

* تقع إلى الغرب من الهرم المدرج بسقارة . وكان صاحبها يشغل منصباً مرموقاً فى عهد الملك أسيسى من ملوك الأسرة الخامسة (المترجم)

قبل تسجيل مستوى الفيضان الذى تتوقف عليه وفرة المحاصيل . ويوزع الملوك جل اهتمامهم بين المظاهر الرمزية للنظام الملكى وعلامات الورع والتقوى وبين إدارة اقتصاد البلاد والدفاع عن حدود المملكة . ويتم تسجيل المراسيم والخطابات المعبرة عن الإرادة الملكية على النصب أو اللوحات الحجرية ، وعلى جدران مقابر رجال البلاط . ويلاحظ أن زوسر ونب كاوو ، وملوك الأسرة الرابعة سنفرو وخوفو وخفرع ، صاروا أبطال القصص الأدبية ، وكانوا يسعون وراء المتع الذهنية بدرجات متفاوته . إن نبؤات نفرتى والتى تم تأليفها فى زمن لاحق ، وفى عهد الدولة الوسطى بالتحديد ، تقدم عرضاً لأصول السلوك المتحضر فى البلاط الملكى :

" فى أيام صاحب الجلاله الملك البار سنفرو ـ له الحياة والرفاهية والصحة * ـ الذى اشتهر بكرمه فى طول البلاد وعرضها ، حدث ذات يوم والملك جالس فى قصره أن دخل عليه موظفو البلاط لتقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم انصرفوا حسبما اعتادوا كل يوم . وهم جلالته ـ له الحياة والرفاهية والصحة ـ فقال لأمين خزينة المملكة الواقف بجـــواره : " هيا ، استدع موظفى البلاط الذين انصرفوا لتوهم بعد أن قدموا فروض الطاعة " ، ومثل الموظفون ثانية بين يدى الملك . " وانبطحوا ثانية على الأرض فى حضرة الملك ... "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم :

G. Lefebvre : Romans et Contes `egyptiens, Paris , 1949 , P. 96 - 97 .)

---

* عبارات تقرن عادة بأسماء الملوك وكل من كرمه الآلهة .

أما قصة سنوحى - فتتوخى مزيداً من الدقة عندما تصور أحداثاً معاصرة للأسرة الثانية عشرة :

حضر عشرة رجال، وانصرف عشرة رجال . ورافقونى إلى القصر . ولمست بجبهتى الأرض بين تماثيل أبى الهول . وكان الأبناء الملكيون فى انتظارى عند المدخل لاستقبالى . أما أصدقاء الملك الذين سبقونى إلى البهو الملكى فقد أرشدونى إلى الجناح الملكى الخاص ، حيث وجدت جلالته جالساً فى المحراب ، على عرش من الألكتروم * . فانبطحت أرضاً على بطنى ، وغبت عن وعى .. "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم
G. Lefebvre , O.C., P. 21)

عرفت الأسرة الثانية عشرة منذ الأجيال اللاحقة بفطنة ملوكها ، وبما تحلوا به من خصال حميدة . ونسبوا إليهم الفضل فى تأليف أسفار فى الحكم . وسواء أكان ذلك حقيقة أم من نسج الخيال ، فقد ساد الاعتقاد أن كل ملك يؤلف سفراً من هذه الأسفار كان يورثه لخليفته ، ثم يتواتر السفر عبر الأجيال من بعده .

إن الصورة التى تركها لنا ملوك الدولة الحديثة عن أنفسهم فتمثل القادة العسكريين الذين كللت هاماتهم بالأمجاد ، والذين يقودون قواتهم من نصر إلى نصر . فنراهم وهم يقدمون إلى الآلهة ثروات البلاد المفتوحة ، أو يتقبلون الجزية من زعماء الدول المجاورة المغلوبة ، أو يوزعون الهدايا السخية على أفضل خدام الدولة فى احتفالات مهيبة .

---

* الإلكتروم : الإسم الذى أطلقه اليونانيون على سبيكة من الذهب والفضة (المترجم) .

كان الكثير منهم مشرعين ، فاشتهر حورمحب وستى الأول ورمسيس الثانى بإصلاحاتهم . وذاعت شهرة امنحوتب الرابع بفضل تصوراته ذات النزعة الطبيعية والتى تركت أثراً عظيماً فى مفاهيم الفن والأدب فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة .

*

* *

يرتبط منصب الوزير وكبار الموظفين ارتباطاً وثيقاً بمكانة الملك فى إطـار حكومة البلاد . ولذا ، وبسبب افتقارنا إلى التراجم الذاتية الدقيقة ، يتعذر علينا فى المعتاد تحديد مسئولية كل منهم تحديداً واضحاً . فمنصب الوزير يقابل منصب رئيس الوزراء فى العصر الراهن ، أى أنه كان رئيس الجهاز التنفيذى . إن وجود هذا المنصب أمر مؤكد منذ مطلع الأسرة الرابعة ، بيد أنه لا يمكن استبعاد وجوده قبل ذلك العصر . وأثناء الدولة الحديثة تزايدت مهام الوزير حتى أثقلت كاهله ، فظهر منصب وزير الوجه البحرى إلى جانب وزير الوجه القبلى . وكانت مسئولية الوزير هى تسيير الأمور فى أرجاء المملكة . كان عاهل البلاد يختار الوزير من بين أقرب المقربين إليه ، بل ومن بين أفراد أسرته . ولقد وصلتنا العديد من التراجم الذاتية التى تمتدح كفاءة الوزراء المتوفين ومآثرهم . وكانت مقبرة " رخمى رع " * ، معاون تحوتمس الثالث وخلفائه ، هى المقبرة الوحيدة التى احتفظت بمشاهد اعتلاء الملك عرش البلاد ، وإلقاء خطابه بهذه المناسبة ، وقد فصل الخطاب واجبات الوزير الذى يشغل الوظيفة الأولى فى الدولة ، مع تصوير مختلف الأنشطة التى يشرف عليها ، وتدوين كافة الشروح اللازمة .

---

* وهو صاحب المقبرة رقم ١٠٠ فى الحوزة العليا بجبانة شيخ عبد القرنه بطيبة الغربية . وكان رخمى رع حاكماً لمدينة طيبة وتولى الوزارة فى آواخر أيام تحوتمس الثالث والسنوات المبكرة من حكم إبنه أمنحوتب الثانى (المترجم) .

وتجرى لقاءات الوزير اليومية مع كبار المسئولين فى الدولة فى مكتبه عندما يكون فى العاصمة . وهذه المقابلات تسير وفقاً لتقليد ثابت لا يتغير :

" فيجلس (الوزير) على مقعده وفوقه وسادة ، بينما الأرض مغطاة بالحصير ، وفوق رأسه مظلة ، وتحت قدمية وسادة أخرى ، ويمسك بعصا فى يده . وتصف أمامه مفتوحه قراطيس الرق الأربعين ، ويقف أعضاء " مجلس الشيوخ العشر فى الجنوب " * على الجانبين وفى مواجهته . أما إلى يمينه فيقف خادمه الخاص ، بينما المشرف على الإيرادات يقف على يساره ، وكتبة الوزير على مقربه منه ، وفى إمكان كل منهم أن يحادث الآخر (؟) والواقع أن كلاً منهم يقف فى المكان المناسب . يستمع الوزير إلى من يحل عليه الدور ، ولا يسمح لآخر أن يتحدث قبل الشخص الذى حلّ عليه الدور .. "

،بداية يتسلم الوزير أختام الحجرات المحصنة ويشرف على فتحها . ثم يحاط علماً بالأوضاع فى قلاع الشمال والجنوب . وتعرض عليه مصروفات وإيرادات الأملاك الملكية وأراضى المقر الرسمى لعاهل البلاد . ويقدم مدير الشرطة ورؤساء المراكز تقاريرهم إليه ، ثم يتجه إلى القصر الملكى لتقديم فروض الولاء للملك ، ومقابلة مسئول الأختام ، ليتباحث معه فى إجراءات الأمن الخاصة بفتح جميع أبواب الأملاك الملكية التى تجرى مرتين فى اليوم . وينجز الوزير كل هذه الأعباء فى صدر النهار .

---

* تمتد اختصاصات هذا الجهاز إلى أرجاء البلاد ولا يختص بالجنوب فقط كما قد يوحى بذلك الإسم . ويتكون من كبار الموظفين الساهرين على تنفيذ الإدارة العليا لملك البلاد . (المترجم) .

ومن اختصاص الوزير وحده ، محاكمة كبار الموظفين بشأن التهم التى يوجهها إليهم زملاؤهم ، كما يختص بالفصل فى الدعاوى الداخلية الخاصة بالأملاك الملكية . كما يحق لأى موظف ، سواء أرفعهم مرتبة أو أقلهم شأناً ، أن يمثل بين يديه طالباً النصح والإرشاد . وهو يقوم بتسجيل الهبات وعقود البيع أو القسمة ، ويفحص العرائض والمظالم الخاصة باستثمار الأرض ، ويأمر بقطع الأشجار فى أملاك الملك عند الضرورة ، ويقرر بناء السدود ، ويقف على أوضاع شبكة الرى فى البلاد ، ويسهر على حسن توزيع المياه على الحقول والمزارع ، ويصدر التعليمات إلى حكام الأقاليم ورؤساء الأملاك فى أوقات الحصاد . وهو الذى يحدد الدوائر الزراعية والمراعى فى كل أقليم ، كما يتولى الإعلان عن قدوم الفيضان وبدء السنة الجديدة بعد أن يستطلع شروق نجم الشعرى اليمانية . وفى احتفال ضخم مهيب ، يتقدم الرسل القادمون من أرجاء البلاد إليه لتسليم الضرائب ، ويمثل بين يديه دافعو الجزية من أنحاء الإمبراطورية . وهو الذى يعين الموظفين وينظم تجنيد قوات الحرس الملكى ، ويرسل المندوبين إلى المسئولين المحليين لتنفيذ المراسيم الملكية وإبلاغ تعليماته إلى أركان حرب الجيش .

ومما لا شك فيه ، أن الوزير غير مكلف يومياً بمعاجة كل هذه القضايا أو إنجاز جميع هذه المهام ، أنما هى موزعة على مدار السنة ، وكل ما قصدناه هو تقديم عرض موجز بالمسئوليات التى كان يضطلع بها الوزير رخمى رع . ومن المشاهد الأخرى بمقبرته نراه فى جولة تفقديه فى مخازن أملاك آمون وورشه . ومن ناحية أخرى ، نعرف أنه كان المسئول شخصياً عن إعداد مقبرة عاهل البلاد ومتابعة تقدم العمل فى الإنشاءات الملكية الكبرى . كما يحضر الاحتفالات الملكية العظمى ويشترك فى الأعياد الدينية وما شابه ذلك . ومن هنا نشأت الحاجة إلى جهاز إدارى ضخم متعدد الاختاصات ليعاون الوزير فى أعبائه الضخمه .

٢ ـ الموظفون

من غير الوارد هنا أن نتناول ولو بشكل مقتضب أمثلة مختارة لأكثر الوظائف تمثيلاً للجهاز الإدارى فى العاصمة أو فى الأقاليم . وحسبنا أن نعطى الكلمة ولو لبرهة وجيزة لأحد كبار موظفى الأسرة السادسة الذى وصل فى سلم الترقى إلى منصب حاكم إقليم وحاكم الجنوب ، ثم نتناول بالبحث وظيفة الكاتب المصرى ، أحد ركائز الجهاز الإدارى ، فندرس ولو بشكل جزئى المهام التى كانت ملقاة على عاتق هذا الموظف العام . لقد بلغت هذه الوظيفة درجة فائقة من التنظيم الذى حماها من التقلبات والأزمات التى لحقت بالنظام الملكى ، وظلت صامدة أمام الغزوات الكاسحة .

سبق أن أشرنا إلى " ونى " كبير موظفى القصر ، عند الحديث عن المسئوليات الجسام التى كلفه بها پيپى الأول * حين نصبه على رأس جيشه . ويروى لنا " ونى " كيف ارتقى درجات السلم الوظيفى ، كما يبرز أهم مراحل حياته الوظيفية قائلاً :

" عندما كنت غلاماً مايزال يتمنطق بالزنار ، شغلت وظيفة رئيس مخزن فى عهد صاحب الجلالة تيتى . ثم عينت كبيراً لموظفى البيت الكبير (...) ثم كاهناً مرتلاً وكاهناً أول بالقصر الأزلى ، فى عهد صاحب الجلالة پيپى . ثم رقانى جلالته إلى منصب الصديق وكبير كهنة مدينة هرمه (... وعيننى جلالته) قاضياً فى مدينة نخن ** إذ كنت

* ببيى الأول هو ثانى ملوك الأسرة السادسة وأحد ملوكها العظام . (المترجم)

** قامت على أطلال نخن القديمة قرية الكوم الأحمر الحالية ، شمال أدفو (المراجع) .

محل ثقته ، فاشتركت بمفردى مع الوزير فى الفصل فى القضايا الخاصة بشئون الملك والحريم الملكى ومحكمة الستة (...) وعندما كنت قاضياً فى مدينـــة نخن عيننى جلالتة صديقاً أوحد وكبيراً لموظفى البيت الكبير . وجرت محاكمة سرية فى الحريم الملكى للزوجة الملكية وصاحبة الحظوة الكبرى ، وكلفنى صاحب الجلالة بالفصل فى القضية وحدى ، دون معاونة قاضى أو وزير أو عين من الأعيان ... بل حكمت فيها بمفردى * (...) . "

وهنا نصل إلى الفقرة التى سبق الاستشهاد بها (ص ٢٤ ـ ٢٧) فقد خرج " ونى " على رأس الجيش الذى تم تجنيده لصد الغزاة القادمين من آسيا . ونظراً لنجاحه كلفه بيبى الأول خمس مرات على التوالى بإعداد القوات اللازمة لمحاربة نفس الأعداء ، فقاد قواته إلى النصر الحاسم . وعند عودته إلى البلاط الملكى كانت فى انتظاره مهام جديدة جسام :

وإذ كنت مشرفاً بالقصر الملكى وحامل النعال ، قـام سيدى ، مرى ان رع ** ، ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ـ فليحيا إلى الأبد ـ وعيننى حاكماً مشرفاً على الوجه القبلى فى جنوبى " إلفنتين " ***

---

* تخلص ببيى الأول من زوجته الملكية وقدمها للمحاكمة لأسباب لا نعرفها . وقد عاونه " ونى " فى تنفيذ رغبته فنال الثقة الغاليـــــة .(المراجع) .

** إبن ببيى الأول وهو أحد ملوك الأسرة السادسة العظام وقد مات فى سن مبكرة (المراجع) .

*** الفنتين أو جزيرة أسوان وكان أسمها أيام الفراعنة " آبو " ومعناها مدينة الفيل (المترجم) .

وحتى شمال أطفيح * (...) وانجزت كل ما كلفت به من أعمال . وقمت مرتين بجرد جميع أملاك المقر الملكى فى صعيد مصر ، وكانت بحاجة إلى الجرد . كما قمت أيضاً بحصر جميع الوظائف التابعة للمقر الملكى والتى كانت بحاجة إلى حصر . وشكلت هيئة إدارية لذلك ، فكان نجاحاً باهراً فى صعيد مصر (...) وأرسلنى صاحب الجلالة إلى " إبهيت " ** لإحضار تابوت الأحياء أو " رب الحياة " بغطائه والهريم النفيس الجليل المخصص للهرم المسمى " مرى أن رع يشرق فى كماله " . كما أرسلنى صاحب الجلالة إلى الفنتين لإحضار الباب الوهمى وعتبة الباب والعتب العلوى والمتاريس ، وكلها من الجرانيت ، إلى جانب الأبواب والبلاط الجرانيتى اللازم للحجرة العلوية لهرم " مرى ان رع يشرق فى كماله " . وأبحرت شمالاً ، قاصداً هرم " مرى ان رع يشرق فى كماله " على رأس أسطول من السفن يضم ستة صنادل وثلاث سفن مسطحة ذات شراع مربع وثلاثة مراكب . كما أرسلنى صاحب الجلالة إلى " حتنوب " *** لإحضار مائدة ضخمة من الألبستر الذى تشتهر به هذه المنطقة . كما أرسلنى صاحب الجلالة لشق خمس قنوات فى صعيد مصر **** كما ذهبت إلى " واوات " حيث خشب السنط، لصناعة ثلاثة قوارب وأربع سفن مسطحة ذات شراع مربع " وقد قام الأمراء الأجانب فى كل من إرتت وواوات وإيام ومدجا بتقديم الأخشاب اللازمة . "

(النص الفرنسى نقلاً عن

---

* أطفيح ، كانت عاصمة الإقليم ٢٢ من أقاليم الوجه القبلى ، وتقع جنوبى مدينة الصف . كان أسمها القديم " تپ إحى " وتپح فى العصر القبطى ، وهو أصل إسمها الحالى (المترجم) .

** محاجر إبهيت بالنوبة (المترجم) .

*** تقع شرق النيل ، جنوب شرقى تل العمارنة . وتعنى دار الذهب أو قصر الذهب (المترجم) .

**** عند الجندل الأول لتيسير الملاحة (المترجم) .

Rocatti . la Litterature historique Sous l` Ancien Empire , Paris , 1982 . P. 191 - 197) .

شغل " ونى " مختلف المناصب على امتداد حياته الوظيفية . فتقلد على التوالى ، أو فى آن واحد ، مناصب إدارية داخل القصر ، أو قضائية فى الأقاليم وذلك فى بداية الأمر ، ثم فى البلاط الملكى . كما تبوأ المناصب العسكرية ، ثم عاد إلى المناصب الإدارية ولكن على صعيد أرقى ، كمعاون مباشر للملك ، ووزيره فى صعيد مصر . وأخيراً وقع عليه الاختيار لإعداد مقابر الملوك الأربعة الذين خدم فى عهدهم . وهى مهام لم يكلف بها إلا من تحلى بالأمانة ، فقد كان " ونى " أهلاً للثقة الكاملة .

*

* *

يتضمن برنامج تدريب الكاتب مجموعة نصوص دعائية ونماذج خطابات وحسابات . ومع حلول الدولة الحديثة ظهرت مؤلفات مستوحاة من كتاب " هَجْو المهن " ، مع تطوير الناحية الإبداعية فيه . لقد استهدفت هذه المؤلفات تمجيد مهنتة الكاتب من خلال تثبيط همم الشبان المتطلعين إلى اختيار مهن أخرى غير مهنة الكاتب ، والعمل على إحباط مسعى الكتبة الراغبين فى تغيير مهنتهم . وإن إصرار هذه المؤلفات فى عناد على بلوغ هدفها ، ليثير الشكوك والارتياب ، لا سيما لما نلاحظه من إنتشار موضوع أدبى آخر انتشاراً واسعاً ، يتمثل فى خطابات تأنيب وهمية موجهة إلى الكتبة المتكاسلين .

إن الصيغة التقليدية لهذا النوع من الأدب تبدأ بالأمر القاطع :
" كن كاتباً " ! يلى ذلك قائمة طويلة تبين بالتفصيل المساوىء والأضرار التى تنتظر كل غلام يرتكب حماقة اختيار مهنة أخرى غير مهنة الكاتب . ويدور الحديث حول مختلف المهن التى يمكن أن يتصورها عقل ، عدا مهنة الكاتب بالطبع ! وظهرت نسخة منقحة فى هذا النوع الأدبى ، كانت أكثر فطنة فى نقدها . حيث تقف عند حد التأكيد بشكل عام على مزايا وظيفة الكاتب لأصحاب التكوين الجسمانى الرقيق :
" كن كاتباً . فبشرتك ناعمة وساعدك يصاب بالإعياء (بسرعة) لا تحترق كما تحترق الشمعة على غرار من تداعت قواهم الجسدية . إن عظمك طرى . . أنت طويل ونحيف ، فإذا أقدمت على جر الأحمال أو رفعها .. خارت قواك ، إلخ .. "
بينما تتمحور نصوص أخرى مباشرة حول المزايا المادية لوظيفة الكاتب وامتيازاتها :
" أقدم لك النصح والإرشاد على المستوى الذهنى وعلى المستوى الجسمانى ، حتى (تتمكن) من الإمساك بلوحة الكتابة بيسر وسهولة ، وكى تكتسب ثقة الملك ، فتُفتح أبواب خزانته ومخازن غلاله ، فتتوفر لك إمكانية تقديم القرابين فى الأعياد والمواسم . وترتدى الملابس الفاخرة وتقتنى الخيول ، بينما يرسو قاربك عند شاطىء النهر . وسوف تسير فى الطرقات فى حماية فرقة من الحرس ، وتتحرك بحرية أثناء جولاتك التفتيشية . سوف تقطن داراً جميلة فى المدينة ، ويختارك عاهل البلاد فى منصب مرموق ، ويلتف الخدم والخادمات من حولك ، ويتقرب منك العاملون فى الريف والحقول التى تشرف على استصلاحها ، فيصافحونك وعلامات البشر والسعادة على وجوههم .
" إنصت إلىّ . إنى جاعل منك موظفاً من موظفى " سلك الحياة ،
" اتقن ماتنسخه ، فتعفى من الضرائب وتصبح قاضياً مرموقاً (...) . "

إن وظائف الكاتب متعددة ومتنوعة ، حسب الجهة التى تستخدمه ، سواء كانت قطاعاً عاماً أو قطاعاً خاصاً . فيعمل فى إحدى المدن أو ينقل إلى الريف ، أو يقيد على قوة إحدى المؤسسات ، أو يندب للعمل فى إحدى الحاميات العسكرية فى أطراف البلاد . ورغم ذلك فإن هذه الوظيفة تنطوى عادة على قدر كبير من المسئوليات الجسام التى تضع صاحبها فوق مستوى عامة الناس ، وتفتح أمامه آفاقاً رحبة لمستقبل زاهر باسم . " فالترقى هدف كل منا " ، ولا جدال أن معرفة القراءة والكتابة والإلمام بالحساب والقوانين تعطى صاحبها سلطاناً على الجماهير التى يغلب عليها الجهل والأمية . ولا يشترط بالضرورة حتى يصبح المرء كاتباً أن ينتسب إلى علية القوم فى المجتمع المصرى . ويكشف لنا فحص الأنساب عن وجود عائلات بأكملها توارثت وظيفة الكاتب . ونذكر على سبيل المثال عائلة الذين سجلوا محفوظات " قبر فرعون الجليل ، العظيم لملايين السنين " فى العام السادس عشر من حكم رمسيس الثالث وحتى العام العشرين من حكم أمن إم أوبت * ، أى ما يقرب من مائة وخمسين سنة تعاقب خلالها على هذا المنصب سبعة أفراد كانت مهمتهم تسجيل العاملين فى الوقف الملكى ، ومتابعة سير العمل ، وحصر المواد المرسلة للوقف لاستخدامها فى أعمال التشييد ، والآلات ، وكذلك الأجور العينية على هيئة غلال والتى كانت تسلم مع مطلع كل شهر ويجرى تدبيرها بمعرفة الأجهزة المركزية ، كذلك تسجيل المراسيم القضائية الصادرة فى قرية دير المدينة ، حيث يقطن العاملون ورؤساؤهم ، ويواصلون عملهم فى هدوء مادامت الحكومة تحافظ على الأمن والاستقرار ، وتضمن رخاءً نسبياً فى أرجاء البلاد . ويستعين

** أمن إم أوبت : أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذين حكموا فى صان الحجر (تانيس) (المترجم) .

الكاتب بكاتبين آخرين مسئولين عن الجماعات المعاونة (سمدت) فى فرق العمال ، وعن الإمدادات اليومية التى تتسلمها هذه الفرق .

وكان من صميم اختصاص كاتب الجبانة كتابة المراسلات المرفوعة إلى الوزير أو إلى الملك ، إذا اقتضى الأمر ، أو إلى السلطات الإقليمية . كما كان مسئولاً عن تدوين التقارير وغيرها من وثائق رسمية . فعندما اجتاحت الاضرابات الجماعات العمالية بعد أن تكرر وقف صرف أجورهم العينية ، تولى الكاتب مفاوضة المسئولين . ولما بدأت العصابات المسلحة تجوب الريف ، وتزايدت أعدادها فعاثت فى الأرض فساداً ، وعجزت السلطة المركزية عن التصدى لها لانشغالها بواجبات تقتضيها الضرورة القصوى ، أخذ كاتب الجبانة يحل محل السلطات المركزية فى هذه المهمة ، على الصعيد المحلى فى أول الأمر ، ثم امتد نفوذه ليشمل مناطق بأسرها . فقد لجأ هو وفرقة محدودة ، إلى معبد رمسيس الثالث الجنائزى * ، واحتمى وراء أسواره المحصنه ، وحول المعبد إلى إدارة مركزية حكومية تشرف على المنطقة بأسرها وكان يباشر أعماله من مكتب جدير بوظائفه الجديدة ، فكان ينتقل إلى القرى والأملاك الواقعة جنوبى البلاد لتحصيل الضرائب اللازمة لتسيير أمور مؤسسات مدينة طيبة وعلى الأخص دفع أجور الموظفين . وقد يختار أحدهم للقيام بمهام جسيمة . فيضطر إلى السفر إلى مصر الوسطى وإلى النوبة جنوباً حيث كان الجيش المصرى يواجه صعوبات فى الدفاع عن الحدود الجنوبية للبلاد . وكان اختياره لهذه المهام يتم رغماً عن أنفه حيث أفصح فى مراسلاته عن نفوره من كثرة الأسفار والترحال .

* معبد رمسيس الثالث ، بمدينة هابو ، غربى طيبة ، هو أكبر ما حفظ من المعابد الجنائزية . كما أنه المعبد الوحيد المحصن . وتبلغ مساحته حوالى ٦٤٠٠٠ م٢ (٢٠٠ × ٢٣٠) متراً أى أكثر من ١٥ فداناً (د. محمد أنور شكرى . العمارة فى مصر القديمة ١٩٨٦ . ص ١٢٩ و ٤٢٢) (المترجم) .

٣ ــ العمال والحرفيون

إن التميز بين عامل متخصص وحرفى وفنان لا يرتكز إلى وجود مؤسسات تجمع كل فئة على حدة ، وإنما كانت بعض المهن تساعد ، أكثر من غيرها ، على إبراز مهارات أصحابها وقدراتهم . فإن عملوا مثلاً فى بلاط الملك ، أو فى ورشة أو فى الإنشاءات التى تهم الملك بشكل خاص ، تكون فرصتهم فى التميز أكبر وأعظم ، ومن ثم تكون الترقية من نصيبهم مكافأة على اجتهادهم . فنرى " مرى پتاح عنخ مرى رع " ، المدعو " نخبو " * ، قد بدأ حياته كبناء عادى ، ليصبح فيما بعد المعمارى المفضل عند پيپى الأول :

" بدأت عملى عند جلالته كبناء عادى . ثم عيننى جلالته مفتشاً على البنائين ، فمشرفاً عليهم . ثم رئيساً لمجموعة ، ثم رقانى جلالته إلى نجار وبناء تابع للملك . ثم عيننى صديقاً أوحد ، ونجاراً وبناء ملكياً فى الإدارتين (...) وعندما ، اصطحبت أخى ، رئيس أعمال الإنشاءات ... كنت أتولى أعمال الكتابة وأحمل لوحة الكتابة . فلما عين أخى مفتشاً على البنائين حملت له عصا القياس (؟) . ولما عين رئيساً على البنائين ، كنت (رفيقه) الثالث . ولما عين نجاراً وبناءً ملكياً ، كنت أدير أملاكه نيابة عنه . وأنجزت كل شىء على خير ما يرام . وعند تعيينه صديقاً أوحد ، ونجاراً ، وبناءً ملكياً فى الإدارتين ، أشرفت على حسابات كافة الممتلكات ، وكثرت المقتنيات التى فى داره ، وفاقت مقتنيات أى عين من الأعيان . وبعد تعيينه رئيساً لأعمال الإنشاءات كنت أنوب عنه فى مختلف الأعمال بما يرضيه ، فأشرفت على إدارة أملاكه الجنائزية على امتداد عشرين سنة (..) . وعيننى صاحب الجلالة مديراً .. وعملت بما يرضى جلالته فى الوجه القبلى وفى

---

* سجل نخبو هذا النص فى مقبرته فى الجيزة (المترجم) .

الوجه البحرى . وكلفنى جلالته بمتابعة (أعمال) مقصورته الجنائزية فى الدلتا (...) ، كما كلفنى بتحديد مسار قناة حورس بخمّيس ، وأشرفت على أعمال حفرها . وأنجزت المهمة فى ظرف ثلاثة ... (؟) ، حتى اتمكن من العودة إلى المقر الملكى قبل انحسار المياه (..) " .
(نقلاً عن النص الفرنسى

A. Roccati , O.C., (P. 182 - 186)

أتم " نخبو " تدريبه كبناء وكنجار فى صحبة أخيه ، ثم تولى إدارة ممتلكات أخيه الذى تعذر عليه الإشراف عليها بنفسه ، إذ شغلته عنها أعباء وظيفته . ثم سار على هدى أخيه ، وسلك الدرب الذى سلكه ، فتدرج فى السلم الوظيفى درجة درجة . وامتدت إنشاءاته لتشمل المبانى وأعمال النجارة وشق القنوات . ومن المسلم به أنه يحيط ترقيته بهالة من التفخيم والتعظيم . ولكن إذا وضعناها فى الإطار العائلى الذى يتحدث عنه لاتضح أن هذه الترقية لا تنطوى على أى ارتقاء على الصعيد الاجتماعى . صحيح أن " نخبو " قد بدأ حياته كبناء عادى ، غير أنه لم يكن مجرد أجير بسيط يعيش من عمله .

حقاً أن الأسرة تلعب دوراً حيوياً فى توجيه الصغار الذين يبدؤون تدريبهم منذ نعومة أظافرهم ، حتى إذا بلغوا سن الشباب لقنهم الآباء أو الأخوة مبادىء مهنتهم وأصولها ، ولا ينتقل للعمل إلى مكان آخر إلا الذين لا يجدوا عملاً فى نفس المؤسسة أو نفس الورشة التى يعمل فيها ذووهم .

إن السير الذاتية التى كشف عنها نقوش أو رسوم أهم المقابر وأرقاها شأناً لا تخص على وجه التحديد الطبقة الميسورة . وليس لنا أن نتوقع من هذا الفن الأدبى أن يلقى الضوء على أدنى الطبقات الشعبية .

وغالباً ما تكتفى المنشآت التى خلفتها هذه الطبقات بالإشارة إلى المهن التى زاولوها هم وذووهم . وفى الحالات الاستثنائية يصورون وهم يمارسون فنونهم . وقد شاع ظهورهم دون ذكر لأسمائهم وسط زملائهم فى العمل عند تصوير أعمال الإنشاءات والورش فى مقبرة الموظف الكبير المكلف بالإشراف عليها . وإذا كان فى إمكاننا تصور النشاط اليومى لأحد العمال ، فالفضل فى ذلك يرجع إلى سجلات المحفوظات . ولكن هذا التصور قاصر على مجتمع عمال الجبانة الذين استخدمهم ملوك الدولة الحديثة لنقر و زخرفة مقابرهم الصخرية بوادى الملوك غربى طيبة .

إنهم عمال بسطاء ، فرؤساؤهم الكتبة يخلفون آباءهم فى وظائفهم ، فقد كانوا مثلهم عمالاً قبل أن يصبحوا رؤساء عليهم . وقد استقرت هذه العائلات فى هذه الأعمال التى كانت تدر أجراً مجزياً بالمقارنة مع الجهد المبذول ، أو بالفئات العمالية الأخرى التى أبقى لنا تاريخ مصر عنها ما يكفى من الوثائق لعقد مقارنات موضوعية . فلنستبعد أيام الأعياد التى تنتقل فيها فرق العمل بكاملها ، نساؤها وأطفالها ، إلى طريق الموكب حيث يشاهدون القارب المقدس والموظفين الذين حضروا خصيصاً احتفاءً بهذه المناسبة ، ولنستبعد أيضاً تلك الأيام المحددة لاحتفالاتهم الدينية ، والأيام التى تحظى فيها مواقع العمل بشرف زيارة الوزير ، أو الأيام التى يودع فيها الجميع أحد زملائهم إلى مثواه الأخير ، أو الأيام التى يقررون فيها الإضراب عن العمل ، أو الإعتصام بمواقع العمل ، أو الخروج فى مظاهرات حول المعابد الجنائزية فى البر الغربى عندما يتأخر تسليمهم حصص القمح والشعير ، أكثر مما يحتملونه .

ولنأخذ كمثال يوماً من أيام العمل العادية . لقد حضر الملك أو وزيره إلى الجبانه الملكية لإختيار أنسب المواقع وأفضلها لإعداد المقبرة . ثم تتولى لجنة من الأعيان ورؤساء فريق العمل وضع تصميم المقبرة . لقد

انتهوا لتوهم من نحت العديد من الدهاليز والحجرات بالاستعانة بنصف فريق العمل فحسب . وهكذا أصبح المكان جاهزاً لعمل أصحاب التخصصات المختلفة ، ويبارح العمال قريتهم مع مطلع الفجر ، ليستمر عملهم على امتداد ثمانى ساعات ، فيتسلقون الطريق المختصر الذى يقودهم إلى الهضبة الجيرية عند الممر المشرف على وادى الملوك ، ويتركون وجبة خفيفة فى الأكواخ المبنية من الدبش التى أعدوها على عجل ليأووا إليها إذا اقتضت الظروف عدم العودة إلى القرية . ويدلفون عبر الدرب شديد الانحدار والموصل إلى موقع العمل . ويتبادل البوابون معهم تحية فاترة . لقد قاموا على حراسة الحجرات المحصنة حيث توضع الأدوات الضرورية لزخرفة جدران المقبرة ، ويستفسرون عن وردية العمال ، وقد تبدأ على الفور مناداة العمال بأسمائهم للتحقق من حضورهم . أما إذا انشغل الكاتب ببعض الأعمال فتؤجل المناداة إلى وقت لاحق . إن عدد العمال على ما يبدو ضئيل هذا الصباح . لقد توجه " آمون نخت " فى صحبة " باشد " إلى أحد الوديان لإحضار الجص اللازم لإعداد الملاط لترميم عيوب الصخر فى المقبرة . كما غاب " نفررنپت " لوقت قصير ليروى ظمأه ، وقد تغيب " سن نجم " و " رعموزا " لقيامهما بواجب زيارة عمهما المريض مرضاً خطيراً بإحدى القرى المجاورة . أما " پارع مسو " ، فينتظر مولوداً جديداً ، ويعالج " أمنحوتب " الإلتهاب الذى أصاب عينى " پاخرو " . أما " ناخى " وزميله " قن حرخبشف " فقد لدغهما عقرب . ويتولى " أن حر خعو " إعداد الجعة بمعاونة المدعو " قنا " استعداداً لعيد " مرت سجر " * إلهة قمة مرتفعات طيبة . وفى المجموع فقد تغيب أثنا عشر عاملاً من بين ستين . لا بأس ! فالغياب فى حدود المعقول والمقبول !.

---

* هى الإلهة الحامية للجبانة وقد عبدت فى غربى الأقصر . وهى أحياناً تمثل على هيئة ثعبان الكوبرا أو على شكل إمرأة ذات رأس بشرى أو رأس ثعبان (المراجع) .

ويحضر العمال الغرائر التى ستستخدم لرفع الردم والأنقاض ،، كما يحضرون فتيل السُرج التى يستهلك موقع العمل منها كميات متزايدة كلما تقدم العمل واشتدت العتمة والظلمة عبر المكان . ويستخرج كل عامل أدوات عمله ، ويتحقق من حالتها وقد انتابه قدر من القلق . فعليه إعادة الأدوات بعد إنتهاء العمل وتسليمها إلى الكاتب الذى سيوازن بينها وبين حجر يستخدم كوزن وسجلت عليه جميع البيانات اللازمة لإحكام المضاهاة والرقابة عند التسليم . وأخيراً يصل العمال الحاضرون قرب أماكن عملهم . لقد قاربت أعمال النحت فى أحد الجدران على الانتهاء ، ويمكن البدء فى عملية التلوين . كان الرسامون قد توجهوا بالأمس إلى جبل قريب لإحضار المواد التى تستخدم فى التلوين . واليوم يصحنوها جيداً ثم يحلّونها ، وقبالتهم ينهمك نحات بكل براعة وفن لإبراز ملامح أشخاص بأزميله النحاسى . وتتم عملية الحفر هذه بعد أن قام رسام برسم الشخص بالمغرة الحمراء . ويتولى معلمه ورئيس فريق العمل استعدالها باللون الأسود . ويتصاعد ضجيج المعاول البرونزية فى الممرات التى تهبط إلى جوف الجبل وهى ترتطم بالصخور التى تتطاير شظاياها ، فيجمعها الصبية فى الغرائر ليفرغوها فى الخارج . وعلى مقربة من الباب يبذل رسام آخر محاولات لرسم بعض العناصر المكونه لمشهد جنائزى ، وسوف ينقل هذا المشهد بعد تكبيره على جدار يجرى إعداده . لقد احتفظ الرسام بأكثر الشظايا استواء ليرسم عليها بفرشاته بعض التكوينات الفنية . وبجواره يتدرب إبنه وإبن أخيه على شخبطة تحاكى رسوماته . أما الكاتب فقد أعد لنفسه مكاناً مريحاً بين حنيات الصخر يلجأ إليه بعيداً عن صخب العمل والعمال ، ويسجل على شظايا الحجر الجيرى ملاحظات حول سير العمل فى الموقع ، وسوف ينسخها فيما بعد فى يوميات الجبانه . وخلال النهار ، ينقطع عن العمل برهة ليتسلم فتائل مجدولة ، وزيت السرج ، ويعد بيانات تفصيليـة عنها .

وعند الظهيرة يتوقف العمل ، ويبارح الرجال موقع العمل بعد أن لازموه فترة ، وتطرف أعينهم من شدة الضوء الذى يغمرهم من كل ناحية فى هذا الوادى الصحراوى المتوهج الحرارة . ثم ينصرفون جماعات جماعات ، فيتجه بعضهم إلى استراحة الوادى ، أما الآخرون الذين يفضلون العزلة فيتجهون إلى الملاجىء التى اختاروها ، حيث تركوا لنا أسماءهم محفورة ، ويتناولون شيئاً من الطعام ، ويحصلون على قسط من الراحة ، ثم يعودون إلى موقع العمل للإنتهاء من العمل اليومى المكلفين به . ويتناوب مسئولان من كل جانب من فريق العمل مهمة الذهاب إلى القرية ، فيشتركان مع الكاتبين المختصين فى استلام المشتريات عند وصول متعهدى السمك والخضروات الذين يزودون القرية بالمنتجات الطازجة . وفى بعض الأيام يتفرغ الرجال المسئولون عن الخدمة يوماً كاملاً لاستلام السلع الغذائية ، وتوزيعها على أهالى القرية ، وذلك طبقاً لنظام صارم يشرف عليه الكتبة الذين يسجلون كل صغيرة وكبيرة تجنباً للشكاوى التى تظهر بسهولة فى هذا المجتمع المعزول . وفى حالة اشتداد النزاع أو تقديم المظالم إلى الرؤساء ، تنعقد محكمة تتشكل من رجال الجماعة أو من نسائها فى بعض الظروف ، وتصدر حكمها . وإذا لم ترض الأطراف المعنية بحكمها ، أو إذا لم يُنفذ الحكم ، يقرر الجميع استجلاء الوحى * ، من الملك المؤله امنحوتب الأول ** ، راعـى

---

* اعتقد المصرى أن المعبودات تشارك فى تقرير مصيره وتوجيهـه فى أعماله . ونراه يعقد العزم على كشف ما قررته بصدده وتنصحه بعمله .
(أدولف ارمان ديانة مصر القديمة : ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر و د. محمد أنور شكرى ص ١٧٤) (المترجم) .

** امنحوتب الأول هو ابن أحمس قاهر الهكسوس وقد أله هو وأمه الملكة أحمس نفرتارى فى غربى طيبة . واعتبرا حماة لعمال الجبانه ، واستمرت عبادتهما لقرون طويلة (المراجع) .

القرية وحاميها . أما الدعاوى التى تتجاوز حدود القرية ، فتختص بها محاكم المقاطعة ذات السلطات الأوسع ، ومثال ذلك سرقات المقابر الملكية المشهورة فى أواخر عصر الرعامسة والتى اتهم فيهـا عمال الجبانة عدة مرات .

ولا تستغرق عملية شق شبكة الممرات وحجرات المقبرة فى جوف الجبل الصخرى أكثر من سنتين ، ثم يستكمل النحاتون والرسامون والمصورون العمل فى المقبرة . وتنتهى زخارف المقبرة بدورها بعد سنتين آخرين . ولما كانت مدة حكم بعض الملوك قصيرة ، فقد تتابعت مواقع العمل فى إيقاع متسارع ، ولذا بقيت العديد من المقابر ناقصة لم تستكمل . كان عدد أفراد كل فريق عمل يتراوح بين أربعين وستين فرداً فى المعتاد ، وإذا لزم الأمر يتم تعزيز فريق العمل بعدد إضافى من الأفراد ، ويتضاعف عددهم فى بعض الأحيان . ولا يمكن القول على كل حال ، أن إيقاع سير العمل كان إيقاعاً جهنمياً ، نظراً لكثرة التغيب على المستويين الفردى والجماعى معاً ، وكثرة الأعمال التى ينفذها العمال لحسابهم الخاص ، كالتماثيل والتوابيت الملونة وكتب الموتى * وخلافه ... صحيح أن الفرق التى لا عمل لها كانت تستخدم أحياناً فى أعمال حرفية فى المنطقة ، ولكن الأعمال الإضافية كانت مصدراً لمكافآت إضافية .

* ظهر ابتداء من الأسرة ١٨ (١٥٨٠ ق . م) وهو يتكون من نصوص دينية جنائزية كتب تارة على البردى وأخرى على الرق ويوضع أحياناً على المومياء مباشرة وأخرى يحفظ فى صندوق مستقل ويودع القبر. ويتكون " كتاب الموتى " من ١٤٠ فصلاً ويمتاز بالصور التوضيحية . (المراجع) .

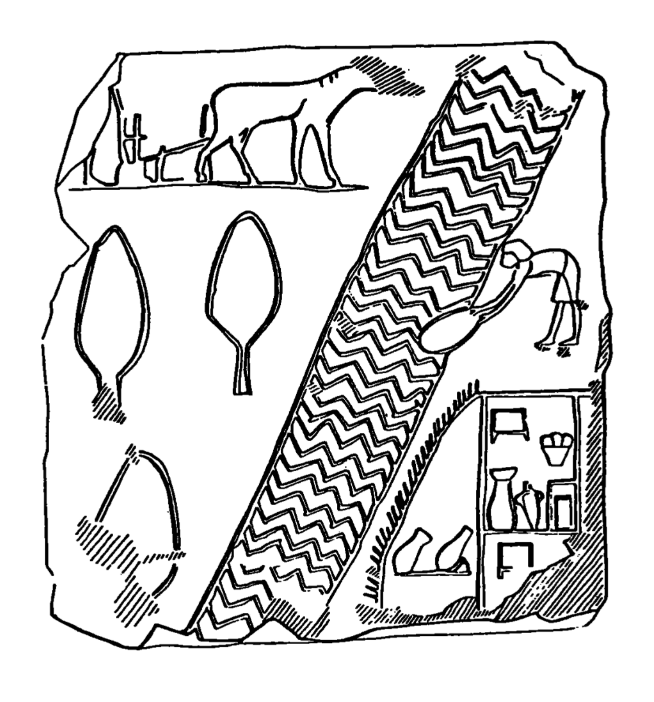
٤ ـ الفلاحون

يعانى عالم الفلاحين فى مصر الفرعونية تناقضاً غريباً : يتصدر المواضيع الجنائزية عندما تتعرض لعالم الأحياء ، ورغم ذلك يظل هامشياً فى اقتصاد يعتمد أساساً على الزراعة . وتجسد مشاهد المقابر سلسلة طويلة من مناظر الفلاحة والحصاد وتربية الماشية . وتتتابع مشاهد الحقول ، ففى أحدها نرى الرجال يدفعون المحراث الذى تسحبه بقرتان . وفى مشهد آخر يبذر الفلاحون البذور فتدوسها الحمير كى تخترق التربة وتدفن فيها أو يجنون الكتان ويقتلعون البصل . أما الحقول المزروعة بمختلف الخضروات والزهور فتتعامد عليها قنوات الرى لتشكل شبكة منتظمة ، ويقوم الفلاحون بريها بعناية فائقة . وفى البساتين تمتد صفوف النخيل وصفوف أشجار الفاكهة . ويتسلق الكروم العرائش . وفى شمال البلاد تشكل البرك والمستنقعات بيئة صالحة لتربية الأبقار التى يقتادها حارسها إلى حيث المراعى ، فيعبر بها قنوات الصرف التى تعج بالأسماك . وعلى مقربة من الشاطىء ، يحزم الرجال البوص ويربطونه ، ثم يتولى آخرون رفعه على ظهورهم . وينتشر صيد العصافير بواسطة الشباك فى المناطق الرطبة ، لتنقل بعد ذلك إلى المزارع بغرض تربيتها . وفى الجنوب ، عند حواف الوادى الصحراوية ، يراقب الرعاة قطعان الماعز والضأن .

وترسم المحاصيل الصيفية لوحة متناغمة ذات تنويعات لا حصر لها . ويتم جمع الغلال والحبوب والخضروات والفواكه فى أكوام ، أو توضع مباشرة فى الأقفاص . ويدرس الفلاحون الحبوب ، وتتجه الحمير مثقلة بأحمالها إلى مخازن الغلال . وعند بوابات ساحات المزارع ، أو فوق أسطح مخازن الغلال ، ينتظر الكتبة وصول المحاصيل ، فيكيلونها قبل تخزينها . إن النماذج التى انتشرت فى عصر الانتقال الأول وعصر الدولة

الوسطى شاع فيها تصوير حظائر الحيوان ، فى حين ندر وجودها على جدران المقاصير الجنائزية . وإضافة إلى ذلك ، كان صناع النماذج الحجرية ، والرسامون يفضلون تصوير مشاهد حصر الماشية ، إذ كانوا يستمتعون على مايبدو ، بتجسيد الضرب المبرح الذى كان يتلقاه الفلاحون عند تحديد قيمة الضريبة السنوية التى تتغير حسب مقدار المحاصيل ، فيتولى جباة الضرائب تحصيلها عندما يحين موعدها . وفى حظائر الطيور ينثر العاملون الشبان حفنات من الحبوب ، وتجمع الطيور فى أقفاص صغيرة . أما الطيور ذات السيقان الطويلة ، فيجرى تربيتها فى ساحات مسورة . كما يعمل النحال بجوار مناحله . وغالباً ما يتم الإشراف على محاصيل المزرعة ومنتجاتها داخل المزرعة نفسها أو فى المبانى الملحقة القريبة من مخازن الغلال وحظائر الحيوان أو فى الأروقة . ويضطلع بهذه الأعباء جيش من العاملين ، خبازون وكرامون وقصابون وطباخون ، الذين يعدون الخبز والجعة والنبيذ والوجبات الطازجة والجافة والأطعمة المحفوظة ، أو يغزلون الكتان وينسجونه فى الورش المجاورة .

وقد أميط اللثام عن أنشطة زراعية متنوعة وحرف بسيطة متعددة بفضل الإشارات المقتضبة التى وردت فى بعض النصوص القديمة أو مخلفات الإنتاج التى اكتشفها الأثريون فى مواقع الحفائر . ولكن يغلب علـى مشاهد المقابر أنها تبرز أنشطة بعينها وتفضيلها على غيرها ، لا سيما المناظر التى تساعد الفنان على التعبير الحر عن ذوقه الفنى . فعندما يرسم الحيوان ، فإنه يتحرر من كل قيد ، ويطلق العنان لقدراته الإبداعية بلا حدود . أما فيما يتعلق برسم الفلاح فقد اقتصر اهتمامه على الحركات والأوضاع التقليدية المطلوب نقلها إلى عالم الأبدية . وفى عصر العمارنه ، اهتم الفنان بتصوير ممتلكات المملكة التى لا حصر لها ، وخاصة أملاك الإله آتون ، على جدران المقابر ومعابد إله الشمس . وإذا كان الفنان ، لم يهجر بشكل كامل الأساليب الفنية التى كانت سائدة فى



شكل ٣ : مشهد ريفى . عصر العمارنة .

[نقلاً عن : BIFAO 69 , 1971 , Fig . 7 . P. 81)

العهود السابقة ، إلا أن الأمر لا يخلو من فروق دقيقة . فظهرت لوحات ضخمة ازدحمت بمشاهد صغيرة تمثل الحياة الأسرية والشعبية ، ورسمت الأطر المحددة لكل مشهد فى علاقاته العضوية بالخلفية العامة التى تجمع بين مختلف المشاهد . وتم نقل كل جزء وكل عنصر من العناصر المميزة . فى دقة فائقة ، فوضع كل كوخ فى مكانه الصحيح ، وكذلك السياج المحيط به .

كما يقدم الأدب المصرى صورة مبسطة عن حياة الفلاح تكتفى بالخطوط العامة . فالمشاهد الريفية التى تصورها إحدى القصص لا تختلف عن أمثالها فى أى مكان أو زمان .

" يحكى أنه كان يعيش فى سالف الزمان أخوان شقيقان . الأكبر يدعى " أنبو " . أما الأصغر فيدعى " باتا " . وكان " أنبو " صاحب دار ومتزوجاً . كما كان فى منزلة الأب ، بالنسبة لأخيه الصغير الذى كان يقيم معه تحت سقف واحد . كان " باتا " يحيك ثياب أخيه ، ويسوق ماشيته إلى الحقول والمراعى ، ويحّرث الأرض . ويجمع المحصول ، ويقوم بمختلف أعمال الحقل المطلوبة منه . وكان الأخ الأصغر قوى البنية دون شك . وقل أن يوجد مثيله فى أرجاء البلاد ، وكأنه يستمد قوته من قوة الرب "

" ومرت الأيام ، وتعاقبت . وكان الأخ الأصغر يسوق الماشية كعادته كل يوم ، ثم يعود فى المساء حاملاً مختلف المحاصيل الحقلية واللبن والخشب وبشائر ثمار الأرض ، فيقدمها لأخيه الأكبر الجالس بجوار زوجته . ثم يأكل ويشرب وينطلق إلى حظيرة الماشية (حيث ينام) . ومع بزوغ ضياء نهار جديد ، يعدّ (الطعام) ويقدمه لأخيه ، الذى يعطيه ما يكفيه من خبز ، ثم ينصرف إلى الحقل ويسوق أمامه الأبقار

لترعى فى الحقل (..) ولما حل موسم الحرث خاطب الأخ الأكبر أخاه الأصغر قائلاً : هلمّ أعد الثيران للحرث ، فقد انحسرت المياه عن الأرض التى صارت صالحة للحرث . ولا تنس إحضار البذور ! فغداً نبدأ الحرث فى همة ونشاط " .

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى
G. Lefebvre , . cit, P. 142 - 143 .)

وننتقل إلى قصة أخرى ترجع إلى الدولة الحديثة * . وتروى مغامرات أحد سكان الواحات فى أسلوب يحسده عليه القصاصون العرب . لقد ترك الواحات إلى الوادى سعياً وراء الرزق ، وبعد أن سلب منه جميع ما حمله من مقتنيات ، يمنحه القاضى جميع ممتلكات الشخص الذى كان يلاحقه ويضطهده بعد أن اقتنع بالظلم الذى راح ضحيته من كثرة ما قدم من شكاوى ومظالم .

" عندئذ أرسل (كبير الأمناء) " رنسى بن ميرو " حارسه (لإحضار " چحوتى نخت ") . وبعد أن مثل بين يديه قام بحصر ممتلكاته ، وما يمتلك من أتباع ، فكان عددهم ستة أشخاص بخلاف ... (؟) ما يمتلكه من زراعات للشعير فى مصر العليا ومن قمح وحمير وماشية وخنازير وأغنام . فأمر كبير الأمناء " بتسليم " چحونى نخت "

* هكذا فى الأصل الفرنسى . وهذه القصة ، هى القصة التى اشتهرت بإسم " الفلاح الفصيح " وجرت حوادثها فى عصر الملك نب كاوو رع أحد ملوك اهناسيا من الأسرة العاشرة ، وكتبت فى عصر الإنتقال الأول الذى سبق الدولة الحديثة بحوالى خمسة قرون (د. أحمد فخرى : الأدب المصرى القديم فى تاريخ الحضارة المصرية . جزء أول ص ٣٩٣ (المترجم) .

(ليعمل عبداً) فى خدمة هذا الرجل الواحى ، كما منحه كل ممتلكات " چحوتى نخت " .

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى
G. Lefebvre , O.C., P. 142 - 143 .)

ومن الغريب حقاً أن النقد اللاذع الذى كان يوجه عادة لكل المجتمعات الريفية لم يكن أدباء ذلك العصر يوجهونه على لسان المزارعين أنفسهم ، بل كان يصدر عن أحد الكتبة الذى يثور ويغضب لرغبة أحد رفاقه القدامى أن يعود إلى الأرض :

" تذكر حال الفلاح ، عندما يطالبه المسئولون تسديد الضرائب المستحقه عليه خصماً من المحصول ، لقد ابتلعت الثعابين نصف المحصول والتهم فرس النهر ما تبقى . وتغطى الفئران الحقول وتهاجمها أسراب الجراد ، وتلتهم الأغنام العشب أما طير الخطاف فيدفع الفلاح إلى الفاقة والإملاق . وما تبقى من طحين داخل الجرن ، فهو لاستهلاك الفلاح الخاص ، وهو معرض لسطو اللصـوص ، ولئن ينخفض سعره فى السوق . لقد نفقت البقرتان من شدة الإعياء ومن كثرة العمل فى الدرس والحرث . ويرسو الكاتب بقاربه على شاطىء النهر ، ويحضر تسجيل المحصول وفى معيته الحجاب الذين يحملون العصى ، والنوبيون الذين يحملـــون جريد النخيل ويقولون : " إعطنا القمح ! " ولكن أين القمح ؟ . فيوسعون الفلاح ضرباً ، ثم يشدون وثاقه ، ويلقون به فى البئر ويغمرونه بالماء ورأسه إلى أسفل . كما توثق زوجته فى حضوره ، ويربط أولاده . أما جيرانهم فقد تركوهم وحدهم ليواجهوا مصيرهم . ويختفى القمح (...) " .

وما يثير دهشتنا هو هذا الدور المشئوم الذى يضطلع به الكاتب ،

وموقفه من الصورة القاتمة التى تصور مصير الفلاحين . إنه لا يحرك ساكناً ، بل ولا يخطر على باله أن يتأمل حقيقة مأساة ضحيته ، ولا يألوا جهداً فى إقناع الآخرين بسلامة موقفه حتى يصل به الأمر إلى موقف لا أخلاقى . إنه غير مهدد بأن يتعرض لمثل هذه المواقف المهينة ، فهو لا يخضع للضريبة حيث كل الكتبة معفون منها .

وعلى عكس ما سبق ، فنماذج المراسلات التى يتدرب عليها الكتبة الشبان لا تعكس حقيقة أوضاع الفلاح كما وصفناها . وتصور النصوص وصول رسول القصر إلى إحدى ضياع الملك بالوجه البحرى ليتسلم فى هدوء تام كميات ضخمة من الفاكهة ودنان النبيذ . كما يشير نص آخر إلى مذكرة مقدمة إلى رئيس محفوظات الخزينة حول أوضاع الأملاك وتفاصيل تنفيذ التعليمات بما يرضى المسئولين . ويحكى نص ثالث يوميات الأعمال التى تجرى فى جرن لدرس الحبوب . كما عثرنا على المراسلات الحقيقية لأحد كبار الملك من الأسرة الحادية عشرة والتى تبادلها مع أحد ثقاته ، فيصف فيها الظروف القاسية التى تمر بها البلاد لتفشى المجاعة . ويتحدث عن توزيع حصص المواد الغذائية فى أرجاء البلاد ، ضماناً لتوفير الحد الأدنى من الضروريات للجميع .

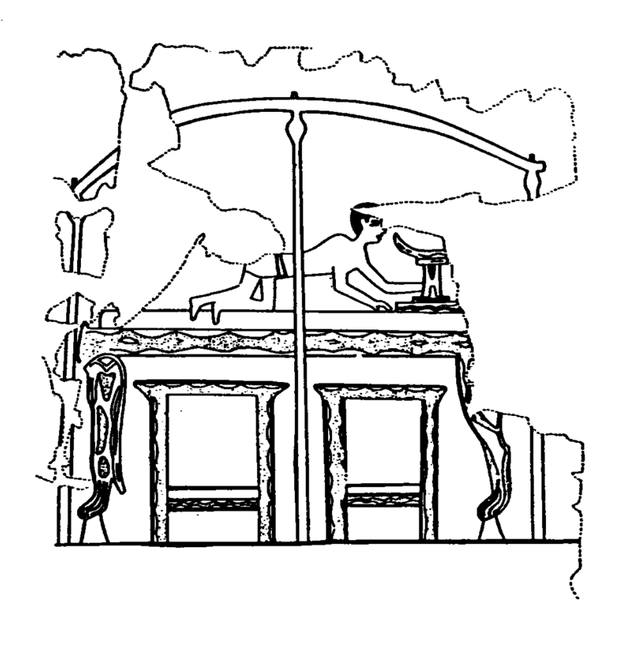
٥ ـ الخدم

كانت طائفة خدم المنازل فى مصر الفرعونية تضم عدداً من المهن ، نعتبرها نحن حرفاً فى عالم اليوم ، مثال ذلك صناعة الأغذية وصناعة النسيج . ولم ينتظم الخدم فى سلم وظيفى ، إذ كانوا يعملون جميعاً عند نفس رب البيت ، ومن ثم كان ينسحب عليهم ما لرب البيت من وضع اجتماعى ، مع إمكانية أن يرأسوا ، هم أيضاً ، غيرهم من العاملين الأقل منهم شأناً . وبناء على ذلك فإن نفس الألقاب لم تكن بالضرورة تحمل نفس الدلالات ، كما لم يكن يترتب عليها نفس الأعباء . فالأمر يختلف باختلاف أصحابها ، فقد يكونون من رجال البلاط ، أو من العاملين عند أحد الأفراد ، أو من العبيد . ومع حلول الدولة الوسطى برز الأجانب وسط طائفة خدم المنازل كفئة متميزة ، وشغل الكنعانيون معظم هذه الوظائف . أما النساء فلم نتطرق إليهن حتى الآن من خلال ممارستهن الفعلية لوظيفة معينة ، ومع ذلك فقد كن يضطلعن بدور سياسى بارز إذا اقتضت الضرورة ذلك ، إذ كن يتبوأن المناصب الاقتصادية والكهنوتية ، ولكنهن استخدمن بتوسع فى مضمار الخدمة المنزلية ، وكان يعهد إليهن بأعمال محددة تحديداً واضحاً .

ظلت نقوش المقابر وتصاويرها منذ مطلع الدولة القديمة ، المصدر الرئيسى لمعلوماتنا كما كان الحال بالنسبة للفلاحين ، وقد أضيفت إليها مجموعات ضخمة من النصب الحجرية التى ترجع إلى الدولة الوسطى . ففى مشاهد البلاط الملكى وريف مصر تتابع مناظر الحرف المرتبطة بالنشاط الزراعى ، والتى يزاولها الحرفيون فى أفنية وديار العامه . وقد جاء ترتيبها بجوار مشاهد الحصاد وجمع المحاصيل ، فالطحانون والخبازون وصناع الجعة يعملون على مقربة من مخازن القمح ، أما القصابون فيذبحون الماشية ويسلخونها ويقطعونها على مسافة بضعة أمتار من

حظائر الحيوان . ونشاهد قطعاً من اللحم معلقة على الحبال لتجف ، أو تشوى بعضها فوق الشوايات ، أو تسوى فى القدور على نار هادئة وفى مشاهد أخرى يحمل خدم المنازل الطعام والشراب إلى رب البيت ، فى حين ينصرف آخرون إلى مختلف الأعمال المنزلية . ويرتب بعضهم حجرة النوم والسرير . وقد لاحظنا من قبل أن المعابد الجنائزية فى الأسرة الخامسة ، تقوم بتوظيف عاملين مدنيين لتجهيز الأطعمة ونقلها أو لتنظيف المفروشات ، وينفرد الكهنة بطقوس الملك المتوفى وتقديم الأطعمة له ، فهذا من اختصاصهم وحدهم . كما أن النماذج التى اشتهرت بها مقابر الدولة الوسطى تمثل مختلف الأنشطة الحرفية الخاصة بصناعة الأغذية والنسيج . وهذه التصاوير أسوة بالمشاهد المسجلة على جدران المقابر ، تستهدف الإبقاء على حيوية ذكرى الضياع ، والأنشطة الزراعية وأنشطة الورش وغيرها .

وفى أيام الدولة الوسطى ، لم يقف الأمر عند حد ترحيب الساده بظهور الخدم والخادمات على جدران مقابرهم ، مع تسجيل أسمائهم ووظائفهم وأوضاعهم الاجتماعية ، بل اعتاد الخدم أن يشيدوا نصباً حجرية تخليداً لذكرى مخدوميهم . ويبدو أن العمل كان موزعاً بين فئتين رئيسيتين : فئة تضم " الخدم الوقوف " ، ومهمتهم الأساسية السهر على توفير ما يحتاجه رب البيت ، من تجهيزات وخدمات ، أما الفئة الأخرى فتضم " الخدم الجالسين " ، ومهمتهم توفير المأكل والمشرب والملبس . وينطوى هذا التقسيم على قدر كبير من التعميم والتبسيط ، حتى أن الخروج عليه كان أمراً وارداً وشائعاً . وفى المعتاد يتميز الخدم الوقوف بأنهم بدناء ، وشاحبو البشرة وحلقاء الرأس ، وكانوا يزاولون أعمالهم فى الجناح الخاص برب البيت ، أو فى الخزانة حيث تحفظ المقتنيات النفيسة كالمعادن والأدوات المعدنية من أسلحة وأوانى ، بالإضافة إلى المفروشات والملابس والنعال ، ثم الدهون والزيوت وما شابه ذلك . كما أن أعمال

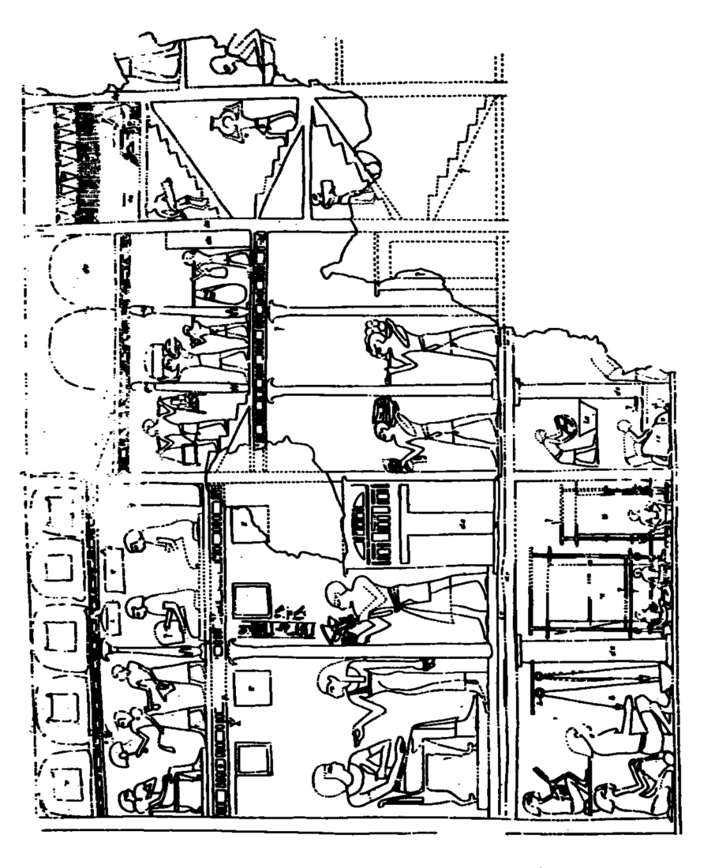


شكل ٤ : خادم يرتب سرير سيده . مشهد من مقبرة أوناس عنخ ، فى طيبة ، من الدولة القديمة .

(M. SALEH , Three Old Kingdom Tombs at Thebes , 1977
لوحة رقم ٤)

الغزل والنسيج والسكافة والتنظيف كانت من اختصاص هذه الإدارة التى يوجد لها مثيل فى ممتلكات التاج وفى المعابد وفى منازل الأثرياء . وكان أصحاب الوظائف المختلفة يعيشون متجاورين متزاملين ، فكتاب التقارير ونظار الضياع والكتبة يعايشون المغنيين والموسقيين والخدم والبوابين ومنظفى الملابس . وتسهر النساء على زينة ربة البيت وخزائن ثيابها . أما المسئولات عن حسن مظهرها وتصفيف شعرها فيحملن المرايا والصناديق الصغيرة ، وبعضهن كن مرضعات أو خادمات للأطفال أو مغنيات .

وتعنى كلمة " شنعو " المطبخ والمخزن أيضاً . إنه المكان المخصص لإعداد الأطعمة وحفظها ، ويضم المطبخ والمخبز ومعمل الجعة والملبنة وأقبية النبيذ وخزان المياه ومخازن حفظ الأسماك والفواكه وما شابه ذلك ، وفيه أيضاً تحفظ المفروشات ودفاتر الحسابات الخاصة بهذه الخدمات . ويقوم الخدم الملحقون بالمطبخ بإعداد الطعام ويقدمونه لرب البيت . وتحتل مشاهد تقديم المشروبات مكان الصدارة وسط مشاهد الحياة الخاصة . أما الخادمات اللاتى يشرفن على تقديم المشروبات ، فكن يجدلن شعورهن ، ويشددن رؤسهن بعصابات مراعاة لصحة رب البيت وضيوفه . وتعمل النساء أيضاً فى المطابخ والمخابز ، ويشرفن على طحن الدقيق بالرحى ونخله بالمناخل ثم إعداد عجين الخبز الذى يصببنه فى القوالب المخروطية المعدة لهذا الغرض . أما أقرانهن من الرجال ، فيقومون بنفس عمل النسوة . ويعدون أرغفة مستديرة أو مسطحة ويتركونها تنضج فى أفران من نوع آخر . فى حين يتولى غيرهم من الرجال جرش الحبوب فى الأجران بمضارب خشبية .



شكل ٥ : منزل " چحوتى نفر " فى طيبة .
نقلاً عن :

Egypt , (N. de Garis Davies , The Town House in Ancient 1929 , Fig 1 , P. 334 - 335)

فلنتأمل الرسم الذى يمثل مقطعاً طولياً فى بيت " چحوتى نفر " * ، وهو من كبار موظفى امنحوتب الثانى . يجمع الرسم بين عدد من هذه الأنشطة الحرفية المنزلية فى إطار أسرى . ونبدأ بالطابق الواقع فى معظمه تحت سطح الأرض ، وهو المخصص لصناعة النسيج . فيغزل الرجال فى الحجرة الأولى ، وفى الثانية ، يجلسون أمام أنوال ضخمة لنسج الكتان ، وفى الحجرة الثالثة ، يقومون بأعمال الغسيل . وفى الطابق الأرضى نشاهد الخدم والخادمات وهم يحضرون الأوانى ، ويقدمون الفواكهة والزهور لرب البيت . وتزدحم السلالم بالخدم الذين ينقلون الصناديق والجرار وقطع اللحم إلى الأدوار العليا. وفى الطابق الأول يجلس رب البيت ، بينما يقدم له أحد الخدم الشراب ، ويتولى آخر ترطيب الجو بهز مروحته . ويبدو أن رب البيت يملى أوامره وتعليماته لكاتبين راكعين أمامه . وفوق سطح المنزل ، يشرف المحاسب على تسجيل المؤن الجارى تسليمها . أما الجانب الأيمن من رسم الدار فمهشم تماماً ، ويفترض أنه كان مخصصاً لقطاعات أخرى من الأنشطة ، لا سيما بيت الحريم .

أما الأملاك الكبرى المنتشرة فى أرجاء المملكة فتظهر على جدران مقابر كبار الموظفين الذين كانوا يشرفون عليها ويديرون شئونها ، وتزدحم بجيش من الموظفين المجهولين الذين يعملون فى همة ونشاط . وتصورهم المناظر وهم يخزنون المؤن أو يحضرون صنوف الأغذية المحفوظة ، ويرتبون المفروشات عند خروجها من الورش ، أو يوردون يومياً الأغذية والأطعمة الضرورية واللازمة لاحتياجات أهل البيت .

---

* هو ملاحظ الخزانة والكاتب الملكى (أمنحوتب الثانى) والرسم المذكور موجود فى مقبرته التى تحمل رقم ٨٠ بطيبة الغربية (المترجم) .

الفصل الثالث

مستوى المعيشة ومظاهره

كانت الدروب التى تتيح للمصرى القديم بلوغ عالم الثراء والأثرياء كثيرة ومتنوعة . فمهما كانت مهنته ، فإن إجره كان يمكنه فى المعتاد من إدخار ما يكفيه للحصول على مقتنيات خاصة . وإضافة إلى ذلك ، كان يحدث فى بعض الظروف أن يهبه الملك بعض المنح أو ينعم عليه بالهبات الخاصة كلفتة كريمة من جلالته تقديراً لمآثره ، عندئذ كان المصرى يستثمر لحسابه الخاص ما يحصل عليه من أراض وقطعان ، ويستقطع من أرباحها تكاليف إعاشة العاملين فى خدمته والضرائب المفروضة عليه والتى تقدر مرة فى العام على أساس حجم المحصول . ومن ناحية أخرى فإذا كان والداه يمتلكان ثروة ضخمة ويتولى الإبن رعايتهما أحياءً ويسهر على ترتيبات دفنهما إذا وافتهما المنيه فقد يؤول إليه إرث تتراوح أهميته وفقاً لثراء الوالدين وعدد الأبناء الأحياء . وفى النهاية فإنه لو أتيحت له الفرصه لمزاولة حرفة أو تجارة إلى جانب عمله الرسمى كان يتوفر له بذلك مورد إضافى لا يستهان به .

لقد وصلت إلينا بعض العقود القانونية المتعلقة بإجراءات البيع والقسمة والوصاية ، التى تقنن حيازة الملكية أو نقلها من شخص إلى آخر ، وإن كانت هذه العقود قليلة جداً بالمقارنة إلى ضخامة أعدادها المفترضة . ومع ذلك فإن هذا القدر القليل يوفر لنا معلومات حية عن موارد بعض العائلات والقيمة النسبية لممتلكاتها ، إذ كان يسجل بالضرورة قبالة كل ملكية ما يعادل قيمتها بمعادن البرونز أو الفضة أو الذهب . كان المصرى القديم الميسور ينفق الكثير إما على رفاهيته ومتع الحياة أو إبهاراً للآخرين . وكان يكرس لهذا الغرض أموالاً طائلة . ونظراً لغيبة النقود فإنه كان يضطر أن يقدم منتجات تعادل الثمن المحدد لما يقتنيه أو يود تملكه . وكان يخصص الجزء الأكبر مما يمتلكه للإنفاق على تجهيز " دار الأبدية " وإعداد الأثاث الجنائزى ووقف موارد الأملاك الجنائزية للصرف منها على الشعائر التى يود أن تقام تخليداً لذكراه بعد وفاته ، ولتشييد المقاصير الجنائزية أو صناعة ما هو أقل تكلفة كالنصب

الحجرية أو التماثيل التى توضع فى حرم المعبد المقدس فى حماية أحد الآلهة ورعايته ، وكان الحرم المقدس لمعبد أوزيرس إله الموتى بأبيدوس * من الأماكن المفضلة لوضع هذه النصب . ومن هنا نستنتج أن المدفن والأوقاف هما من أهم مظاهر الثراء فى مصر الفرعونية . إنها رسالة موجهة إلينا عبر الزمان السحيق تخبرنا بمآثر المتوفى وخصاله الحميدة ومقتنياته المادية فى إطناب واسترسال عن محياه وثروته وتعددها .

---

* أبيدوس ، هو الإسم اليونانى للمدينة المصرية القديمة " أبدو " التى كانت تضم قبر الإله أوزيريس ، وتقع فى المنطقة الرملية إلى الجنوب الغربى من " ثنى" وتشمل أبيدوس الآن القرى الآتية : الغابات والعرابة المدفونة وبنى منصور(المترجم) .

١ ـ المقبرة والأثاث الجنائزى وعمائر تخليد الذكرى

إذا تركنا جانباً عمارة القبر الملكى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أنها النموذج الأول المحتذى لمقابر الأفراد . ومع ذلك فقد تنوعت عمارة مقابر الأفردا باختلاف الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية . ففى بعض المقابر التى ترجع إلى بواكير الحضارة المصرية وقبل عصر الدولة القديمة كشفت الحفائر عن آثار تنم عن الرغبة الملحة التى دفعت المصرى إلى نقل أهم العناصر الضرورية لحياته على الأرض إلى المقبرة ضماناً لاستمرار الحياة الأخرى . لقد شيدت أولى المصاطب * بالطوب اللبن وأحيطت بسور له مشكاوات أى دخلات رأسية عميقة متعاقبة يعرف إصطلاحاً بإسم " واجهة القصر " . ومن المتفق عليه على وجه العموم أن هذه المصاطب كانت قريبة الشبه بقصور أمراء ذلك العصر . ومع حلول الأسرة الثالثة أخذت المقابر تتميز عن المساكن من حيث بنيانهـا والمواد المستخدمة فيها . فانتشر استخدام الحجر عند تشييد البناء العلوى من المصطبة . بل أقيمت بعض التشييدات المعمارية من أجود أنواع الحجر الجيرى المنقول من محاجر طره أو من جرانيت أسوان أو من الألبستر الذى اشتهرت به منطقة حتنـوب ** ، الأمـر الذى زاد من جمال المظهر وبهائه . وابتداء من الأسرة الرابعة أخذت نقوش المقبرة تسجل قصة بناء المقبرة أو وصول الباب الوهمى أو التابوت كمنحة من الملك أو هبة منه . وتدون هذه النقوش فى المقصورة الجنائزية أو على عتب باب المقصورة حتى يطالعها أقارب المتوفى والكهنة الجنائزيون عند حضورهم لتقديم القرابين اليومية .

---

* المفرد " مصطبة " وهو إسم إصطلاحى أطلق على المقابر الملكية فى بداية الأسرات وعلى مقابر الأفراد خاصة فى الدولة القديمة. (المراجع) .

** هو إسم محاجر الألبستر ببنى سويف (المراجع) .

تقول إحدى هذه النقوش :

" المكان الذى شيدت فيه هذه المقبرة هبة من ملك الوجه القبلى والوجه البحرى الملك " منكاورع " ليحيا إلى الأبد . وحدث أن (جلالته كان يمر) بالطريق القريب من الهرم متفقداً أعمال تشييد هرمه المسمى " منكاورع المقدس " وبينما كان عامل البناء (والنجار الملكى) والكاهنان الكبيران لمدينة منف والحرفيون ، كانوا جميعاً موجودين لمباشرة أعمال تشييد المعبد (...) إذ بجلالته يصدر أوامره لتسوية الأرض وإزالة الرديم المتخلف عن أعمال البناء (لتشييد) هذه المقبره " .

ورغم ما يتخلل باقى النص من فجوات إلا أن ما تبقى لنا من إجزاء توضح أن الملك كلف أمين خزانة الإله بإحضار الحجر الجيرى اللازم لكسوة معبده الجنائزى من محاجر طره ، وأن يحضر معهما بابين وهميين وملحقاتهما لمقبرة " دبحنى " . وقد شيدت المصطبة تحت إشراف مهندس الملك شخصياً ، وصدر بذلك مرسوم ملكى . وكانت أبعاد المصطبة " ١٠٠ ذراع * طولاً و ٥٠ ذراعاً عرضاً أى ما يساوى حوالى ١٢٥٠ متراً مربعاً ، وكان ارتفاعها يناهز ٤ أمتار .

وهكذا انتشرت فوق هضبة الصحراء الغربية مدن وأحياء كاملة من المصاطب التى شيدت حول أهرامات دهشور والجيزة وأبو صير وسقارة ** وصارت المثوى الأخير لعائلات من رجال البلاط . أما فى أقاليم مصر

---

* يساوى الذراع المصرى ٣ ، ٥٢ سم . (المترجم) .

** إذا أردنا ترتيب هذه المناطق من الشمال إلى الجنوب كانت على النحو التالى : الجيزة ، أبو صير ، سقارة ثم دهشور (المترجم) .

فقد ظهر طراز آخر من المدافن أخذ ينافس الطراز الأول . لقد نقرت المقابر الجديدة على امتداد الوادى فى الهضبة الصخرية المتاخمة للنيل فى بعض المواقع . وقد ابتدع حكام الأقاليم تخطيطاً جديداً أو مختلفاً تماماً لمقابرهم الصخرية ، إذ تبدو عمارة المصطبة ككتلة ضخمة تضم الجزء العلوى من البناء ، وتتكون من صفة صغيرة تفضى إلى فناء . وتتكون المقصورة الجنائزية من عدد من الحجرات لكل منها وظيفتها الخاصة . وكان السرداب المغلق يحتوى على تمثال قريب الشبه بالمتوفى . وأسفل هذا الجزء العلوى من المقبرة توجد حجرة دفن واحدة أو أكثر نصل إليها من خلال بئر . أما المقابر الصخرية فيتقدمها فناء أو فناءان إذا توفر المكان . وقد يوجد علاوة على ذلك درج فخم كمدخل للمقبرة ، وقد تزدان واجهة المقبرة بباكية فخمة ، أما قاعات المقصورة وحجرة الدفن فقد نقرت فى صخر الجبل . واعتمد المصريون هذين النمطين المعماريين معاً عبر مختلف عصور التاريخ الفرعونى سواء فى الجبانة الملكية أو فى المقابر المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . كما ظهرت مقابر جمعت بين عناصر النمطين أو ابتكرت مع مرور الزمن إضافات جديدة كان من أبرزها الهريم الذى يوضع فوق المقصورة . ويبدو أن هذا الهُريم ظهر أول ما ظهر فى طيبة فى عصر الأسرة الحادية عشرة ، وانتشر انتشاراً كبيراً فى ظل الدولة الحديثة . كما شاع استخدامه فى أبسط الطبقات .

وعندما كانت جدران المقابر المشيدة أو المنقورة فى الصخر تخلو من مناظر تقدمه القرابين أو مناظر الطقوس والشعائر الجنائزية ، كانت تسجل ، وهذا بالطبع طبقاً لقواعد العصر ، بنص أو بصورة مرفقة بتعليق قصير أملاك المتوفى والأنشطة الوظيفية وغيرها ، هذا بالإضافة لبعض مظاهر سلطته وسلطانه وما شارك فيه أو عاصره من أحداث مهمة . وأخيراً كان يصور أفراد أسرته وأصدقاؤه ورفاقه ورؤساؤه ومرؤوسوه . حقاً إن المقبرة لتعبير صادق عن ثراء صاحبها بالنظر إلى

أطوالها ومساحتها ومستوى نقوشها وحيوية رسومها ، ويضاف إلى كل ذلك ما لذّ وطاب من صنوف الطعام . واضح من ذلك أن ثراء المتوفى وراء إعداد هذه المقبرة وتجهيزها ، فالمقبرة هى البرهان الحى على المكافأة التى تنتظر كل صاحب فضيلة ، والجائزة التى تمنح لمن عاش حياة حافلة بالنجاح ، وهى من النعم التى لا يفوز بها إلا من استحقها عن جدارة . ولا يقف الأمر عند جمال عمارة الجزء المرئى أو المتاح للزيارة من المقبرة والمواد المستخدمة فيه أو الزخارف المنتشرة على جدرانه ، بل إنه يمتد إلى أعماق حجرة الدفن والأثاث الجنائزى . كان الإعتقاد السائد أن فخامة البناء العلوى ، وهو الجزء الظاهر من المقبرة ، يعنى أنها تحوى كل ثمين ونفيس ، فصار من الصعب مقاومة إغراءات السلب والنهب . وليس من قبيل الصدف أن المقابر التى سلمت من أيدى اللصوص هى المقابر التى ضاعت معالم مداخلها ، أو لعبت الظروف والصدف دوراً فى إخفائها وطمسها . ومع بداية الدولة الحديثة كان أثاث المقبرة يتكون من عناصر جنائزية كالتوابيت وأوانى الأحشاء وتماثيل المجاوب * هذا إلـــى جانـب " كتاب الموتى " بالإضافة إلى كل ما يحتاجه المتوفى لاستعماله اليومى من أثاث منزلى وملابس وأدوات زينة وآلات وأطعمة وأوانى . وإذا كان المتوفى من الأثرياء وضع بجانبه فى المقبرة بعض القطع الثمينة من تماثيل خشبية وأحجار كريمة ومعـادن أو أوانى ذهبية أو فضيـة أو برونزيـة إلخ ... وعند إتمام المراسم الجنائزية ، كان حاملو الأثاث الجنائزى يسيرون فى موكب مهيب خلف الجثمان الذى يحمل الدليل القاطع على نوعية التحنيط التى فاز بها المتوفى . فالتحنيط أنواع : النوع الأول وهو أجودها ، ويتم على خطوات على النحو التالى :

---

* وهى المعروفة إصطلاحاً بإسم " أو شبتى " أو " شاوبتى "وهى تماثيل الخدم التى تسهر على خدمة المتوفى . وبلغت أعداد هذه التماثيل عدة مئات فى بعض المقابر (المترجم) .

استخراج المخ والأحشاء * ثم إحلال المواد العطرية محلها ثم توضع الجثة فى ملح النطرون لمدة سبعين يوماً . أما أبسط أنواع التحنيط فيكتفى بتجفيف الجثة باستخدام مواد راتنجية ، ثم تلف بلفائف من الكتان تتراوح رقتها حسب نوعية ودرجة التحنيط .

ولم ينحصر اهتمام المصرى فى الحفاظ على البدن فى بيئة مريحة آمنة إذا وافته المنية ، فاستمرار الحياة بعد الوفاة يحتاج إلى إمداده بالمأكل والشراب بانتظام ، والقيام ببعض الشعائر وذلك استمراراً لممارسة الفم والأنف لوظائفهما الحيوية . ومن الأهمية بمكان ألا يتوقف النطق بإسم المتوفى على مرّ الزمان . فحتى يصل المصرى إلى هدفه المنشود كان لزاماً عليه أن يوقف ريعاً أو دخلاً ثابتاً للصرف على من يقومون بخدمته بعد وفاته ، وذلك بعد أن لم يعد فى استطاعته أن يأمرهم بذلك . أو أن يعتمد على تقوى أهل بيته . لقد حفر المصرى القديم عند مداخل المقاصير دعاء موجهاً إلى الأحياء لاستثارة حميتهم . ولضمان استمرار الحياة بعد الموت ، ظن المصرى أن الإرتكان إلى الآلهة أفضل من الاعتماد على الكهنة . فخلد ذكراه بأن أقام المبانى فى المعابد التى شيدت فى مسقط رأسه ، أو أقامها فى أبيدوس خلال رحلاته المتكررة إلى المدينة المقدسة للحج والتبرك . ومن نماذج هذه المبانى التماثيل التى أقيمت كمظهر للتضرع والتقوى أو النصب الحجرية التى تضم مناظر لعدد من أفراد أسرته أو المقربين إليه ومعاونيه .

---

* يستخرج المخ عادة عن طريق الأنف وأحياناً عن طريق الثقب الأعظم أما الأحشاء فتستخرج عن طريق شق البطن (المترجم)

٢ ــ الناس

إنه لمن الصعب إماطة اللثام عن اللوائح المنظمة لعمل الموظفين الذين نشاهدهم على جدران المقابر وهم يزاولون الأنشطة المتعددة والمتنوعة فى خدمة السيد أو فى الحقول أو فى الورش أو فى الأجنحة المخصصة لتوفير الخدمات المنزلية ، وذلك لأن العديد منهم موظفون ملكيون . هذا بالإضافة إلى أننا ما زلنا نجهل ظروف تواجدهم لدى الأفراد العاديين : هل هو وجود مؤقت لإنجاز مهمة محددة ، أو أنهم ملحقون بملكية خاصة . فتصبح أوضاعهم شبيهة بأوضاعهم كموظفين فى أملاك التاج أو فى وقف دينى ، وإذا توفى رب الأسرة فهل يخضعون لسلطة الزوجة أم الإبن الأكبر ؟ . ولا تسعفنا أى نصوص قانونية توضح أوضاع هؤلاء الرعايا . ومن دراستنا لبعض الحالات الفردية نستنتج عدم وجود قواعد عامة مطلقة وثابته لتنظيم هذه الأوضاع وأن توزيع هؤلاء الموظفين للعمل فى أرجاء المملكة رهن باتفاقيات خاصة تبرمها السلطات مع الأعيان الراغبين فى استخدام هذه الفئة من العمالة . وأياً كان الأمر فمن المؤكد أن هؤلاء الموظفين لم يكونوا ملكاً لمخدوميهم .

أما الأفراد الذين حرموا من حريتهم بحكم قضائى ، والأجانب أسرى المعارك الحربية خارج البلاد ، فإن أوضاعهم كانت جد مختلفة . لقد حفظ لنا الزمن ملفاً يرجع إلى الأسرة الثالثة عشر يحدد حقوق السيدة " سنب تيسى " على جماعة مسترقة مكونة من ٩٥ فرداً . ويحوى الملف مقتطفات من سجل استقبال النزلاء فى السجن الكبير فى طيبة ، ويرجع تاريخه إلى الأسره السابقة ويشمل على معلومات قيمة عن هؤلاء الأفراد . فيذكر إسم كل منهم وأحياناً وظيفتــه والتهمة التى أدين بسببها . وتحت أيدينا محضر يحق بموجبه لمناظر الضياع " حا عنخ أف " أن يتصرف كما يشاء حيال هؤلاء الرجال والنسوة على السواء ،

وينتقل هذا الحق إلى زوجته من بعده . وترجع إلى نفس العصر محفوظات مدينة سنوسرت الثانى الهرمية بالفيوم التى حوت على العديد من وثائق القسمة ، منها ما يشبه وثيقة قانونية تحتوى على وصيتين متلاحقتين :

تقول الوصية الأولى :

" عقد ملكية حرره أمين الخزانه ورئيس إنشاءات المدينة الشمالية المدعو " إيحى سنب " وشهرته " عنخ رن " بن " شبست " : جميع أملاكى ، ما كان منها بالريف وبالمدينة ، أتركها لأخى " إيحى سنب " وشهرته " واحو " بن " شبست " ، الكاهن فى جماعة الإله سوپد * رب الشرق . وأودعت صورة الوصية فى مكتب نائب الجنوب فى العام ٤٤ ، الشهر الثانى من فصل الصيف ، اليوم الثالث عشر .

أما الوصية الثانية فتقول :

" العام الثانى ، الشهر الثانى من فصل الربيع ، اليوم الثامن عشر . عقد تملك ، حرره الكاهن " إيحى سنب " فى جماعة سوپد رب الشرق : إنى أحرر عقد تمليك لصالح زوجتى " شفت " وشهرتها " تيتى " إبنة " سات سوپد " فجميع الممتلكات التى أعطاها إياى أخى " عنخ رن " أمين الخزانه ورئيس الإنشاءات (..) وجميع آنية المائدة التى ورثتها عن أخى ، فمن حق زوجتى أن تمنحها لمن تشاء ، من أبنائها الذين أنجبتهم منى . وأهبها أيضاً الأسيويين الأربعة الذين ورثتهم عنِ أخى ... لكى تعطيهم لمن تشاء من أولادها . أما مقبرتى فأود أن أدفن فيها مع زوجتى . ولا يدفن أحد آخر معنا . أما المبانى التى ورثتها عن أخى فلتسكنها زوجتى ولا يحق لأحد أن يطردها منها (..) " .

---

* هو إله الإقليم العشرين من أقاليم الدلتا . وكان المركز الرئيسى لعبادته صفط الحنة الحالية (المترجم) .

لقد جاء ذكر العاملين المسترقين مباشرة بعد الممتلكات ، كما ورد تماماً فى قصة " الواحى " * . ومن الملاحظ أن صورة الوثيقة الأولى مرفقة بوثيقة الملكية الثانية تأكيداً لحق صاحبة الوصية فى التصرف فى الأملاك المعنية .

وإلى جانب ما سبق ذكره ، وصلنا من عهد رمسيس الثانى محضر وصية يحتوى على بنود عقد بيع فتاة سورية ، وتتضمن الوثيقة أيضاً مقايضة عبد مقابل مقبرة من مقابر طيبة .

بنود عقد بيع الفتاة السورية :

" فى العام الخامس عشر ، وبعد إنقضاء سبع سنوات على زواجى من سا (موت) رئيس المدينة حضر التاجر رايا وفى صحبته الجارية السورية " چيمنى حرى منتت " وحدثنى قائـلاً : لقد وجدتها فى الغرب . وكانت طفلة آنذاك . واستطرد قائلاً : " اشتر الفتاة واعطنى ثمنها . فاشتريت الفتاة ودفعت ثمنها . والآن أعرض على القضاه السعر الذى دفعته للحصول عليها . "

وتسرد بنود العقد تفاصيل ما قدمته السيدة للحصول على هذه الجارية . لقد قدمت سبع ثياب أو قطع نسيج كانت فى حوزتها ، وأضافت إليها خمس أوان برونزية وتسعة كيلو جرامات نحاس وجرة عسل وعشرة سراويل حصلت عليهم من ستة أشخاص مختلفين . وإذا جمعنا قيمة كل ذلك لوجدنا أنها دفعت ما يعادل تقريباً ٣٧٥ جراماً من الفضة للحصول على الجارية الشابة . أما المقبرة التى تم مقايضتها بعبد

---

* وهى القصة المشهورة المعروفة إصطلاحاً بعنوان " الفلاح الفصيح " (المترجم) .

فلم تحدد الوثيقة قيمتها . ولكن وصلتنا شهادة حية لعبد آخر من عهد رمسيس الحادى عشر إذ يقول أن صاحبه قد اشتراه مقابل ما يناهز تقريباً ١٨٢ جراماً من الفضة . وفى نفس التاريخ تم شراء إمرأة مقابل حوالى ٣٧٥ جراماً من الفضة .

كانت هذه الوثائق قليلة ونادرة فى العصور السابقة على العصر المتأخر . ولكن يعتبر وجود العبيد بأعداد متفاوته ضمن تركات الأفراد من الأمور العادية والشائعة فى أيام الدولة الحديثة فى الشرائح الاجتماعية ذات الأصول المتواضعة : كالأب الإلهى أو البستانى أو عمال الجبانة أو حتى الأجانب ....

٣ ـ العقارات

خلف لنا عصر الدولة القديمة عدداً من عقود بيع المنازل ، منها عقد محفور على نصب حجرى كان ينهض على مقربة من العقار ، ولكن العلماء الذين ترجموا هذا النص لم يتفقوا على طبيعة هذا العقار . هل هو منزل أم مقبرة ؟ وظل السؤال المطروح دون جواب شاف . ولا يذكر النص أطوال المبنى . أما ثمنه فيعادل ١٠ شعتى * تم تسديدها بواسطة قطع نسيج وسرير . وتم الكشف عن عقدين آخرين محررين على ورق البردى ، فى قرية جبلين فى صعيد مصر ، ويعود تاريخهما إلى آواخر الأسرة الرابعة . يتضمن العقد الأول بيع مبنى طوله ١٦ ذراعاً وعرضه ١٥ ذراعاً لتصبح مساحته زهاء ٥٦ متراً مربعاً وتم مقايضته مقابل ٥ر ١٥ ذراعاً من النسيج ، ولم تحدد قيمته المعدنية ، أما أطوال المبنى الآخر كما وردت فى العقد الثانى فهى ١٦ ذراعاً فى ١١ ذراعاً أو حوالى ٤٠ متراً مربعاً ، وتم مقايضته مقابل٢٤ ذراعاً من النسيج .

ولا يوجد تحت أيدينا عناصر موازنة ومقارنة معاصرة لعقود البيع هذه تساعدنا على تحديد القيمة المطلقة لهذه الممتلكات .

وقد وصلتنا نصوص متنوعة من مختلف العصور تشير بشىء من الوضوح إلى تشييد المنازل وإقامة الأملاك . إن " وثائق أعمال متن ** " المستخرجة من السجلات الرسمية تؤكد أن حقوق المالك تمتد

---

* الشعتى يعادل ١٢/١ دبن والدبن يعادل ٩١ جراماً . (المترجم) .

** وهو من كبار موظفى الدولة القديمة . ترقى فى مراتب السلم الوظيفى من أدنى الدرجات حتى بلغ أرقى المناصب . (المترجم) .

إلى عدد من الأوقاف ذات الأغراض الجنائزية . وتعتبر هذه الوثائق حتى الآن أقدم مجموعة نصوص قانونية . فهى ترجع إلى أواخر الأسرة الثالثة وتحدد مساحة كل وقف وموقعه الجغرافى .

وقد ورد فى وصف أحد الأملاك ما يلى :

" طول الأرض ٢٠٠ ذراعاً وعرضها ٢٠٠ ذراعاً - أى حوالى ٤ هكتارات * . ومسورة وزرعت أشجاراً جميلة . وجهزت أيضاً بحوض فسيح وزرعت بجواره أشجار تين وكرمة عنب " .

وفى مدينة سنوسرت الثانى الهرمية عند اللاهون توجد لوحة حجرية تشير إلى أربعة منازل ذات مساحات متساوية وأبعاد كل منها ٣٠ فى ٢٠ ذراعاً ، أى حوالى ١٥٠ متراً مربعاً . وقد وصلتنا شهادة حية من الأسرة الثامنة عشرة ، هى عبارة عن خطاب موجه من أحد حكام الأقاليم لرئيس الإنشاءات ويقول فيه :

" (...) ضع الحصر والعوارض الخشبية اللازمة للمخازن والجزء الخلفى من المنزل فليكن ارتفاع الجدار ٦ أذرع - أما أبواب المخازن فليكن ارتفاعها ٥ أذرع . أما أبواب الدار فليكن ارتفاعها ٦ أذرع . وعليك أن تبلغ هذه التعليمات أيضاً إلى عامل البناء . ونبه عليه بسرعة الانتهاء من بناء المسكن (...) وسوف ابلغك بالارتفاع الإجمالى للمبنى وعرضه (...) وأخيراً سدد ثمن أرض المنزل لمالكها . واعلم أنى لا أود التعرض لمضايقاته عند حضورى ! " .

وللأسف لم يحدد الخطاب ثمن الأرض .

---

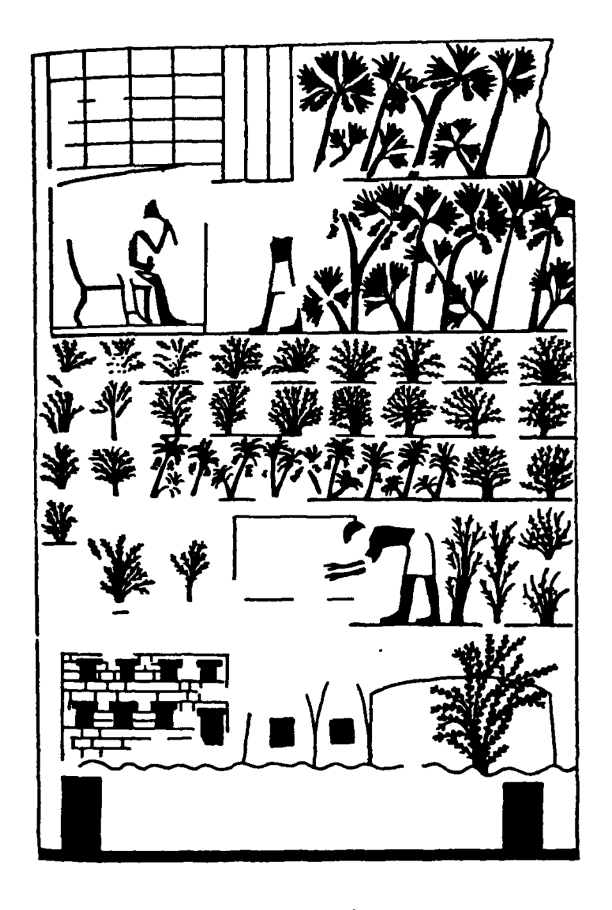
* أى حوالى ٢/٣ ١ فداناً (المترجم) .

ومع بداية الدولة الحديثة ، ظهرت على جدران المقابر مشاهد المساكن فى إطارها الطبيعى من حدائق وبساتين .

ففى مقبرة " أنينى " الذى كـــان مهندس أمنحوتب الأول والتحامســـة *، تم تخصيـص جـــدار كامـل من مقصـــوراتـــه الجنائزية لمشاهد بيته الريفى . فنرى فى مقدمة المشهد جداراً من طين به بابان ، وقمة الجدار غير مستوية وتتخذ خطاً متعرجاً ، لقد كشفت أعمال التنقيب فى أرجاء مصر والنوبة عن جدران مماثلة . ويخفى الجدار الجانب الأسفل من المسكن ومخزنين للغلال ومبنى ضخماً أبيض ذا سقف على شكل قبة ، يتوارى خلف شجرة جميز . ويبدو لأول وهلة أن المسكن قد شيد بكتل ضخمة من الحجر الجيرى . ولا غرو فى ذلك ، إذا أدخلنا فى الاعتبار العمائر الفخمة التى شيدها المهندس أنينى فى طيبة لسادته ملوك مصر . بيد أن الأمر ينطوى على مفارقة إذا لاحظنا أن القصور الملكية ذاتها قد شيدت بالطوب اللبن ، ولا تشتمل على الحجر سوى فى بعض العناصر المعمارية . فاحتمال استخدام الحجر فى تشييد مسكن أنينى يبدو إسرافاً وترفاً لا مبرر له . ومن ناحية أخرى ، فقد لقى قيام الرسام بتقليد الخشب والحجر فى رسوماته رواجاً وإقبالاً . نخلص مما سبق أن ما نشاهده هو مجرد رسم يمثل خطوط التقاء الحجر ، وقد صور على خلفية مطلية بالجير الأبيض . وللمسكن طابق علوى ، ولكن المبنى بدون سطح . أما الصف الثانى من المشهد فيصور حوضاً محاطاً بشجيرات مرتبة فى تناسق تام . أما مناظر الصفوف التالية ، فتوحى بمشاهد تمثل حقلاً زرع بالخضروات مع غابة نخيل . وقد سجـــل

---

* مقبرته رقم ٨١ فى جبانة الشيخ عبد القرنة فى طيبة الغربية وكان من كبار الموظفين فى عهد امنحوتب الأول وحتى عهد تحوتمس الثالث . (المترجم) .



شكل ٦ : حديقة ومنزل " أنينى " . مشهد من مقبرته فى طيبة .

بالتفصيل عدد المجموعات النباتية التى تجود بها الأرض حسب نوعيتها على شكل قائمة بها ٣٧٠ مجموعة و ١٢ قدماً من الكروم .

ولقد وصلتنا رسومات على قدر من التبسيط مثل واجهة المساكن ، أو مقطع طولى يظهر ما بداخل المسكن . كما كشفت الحفائر عن نماذج لمساكن الحضر والريف صنعت من الطين أو الخشب أو الحجر الجيرى ، وهى مكونة من طابق أرضى فحسب ، أو من طابق علوى وسطح . وهذه الرسومات وهذه النماذج تساعد على فهم البقايا العديدة للمساكن التى كشفت عنها أعمال التنقيب فى بيئات مختلفة ومتنوعة .

ويصعب التمييز بين المنازل التى خصصت لشاغليها بعد دخولهم فى خدمة رب البيت ، وتلك التى تعتبر ملكية خاصة حقيقية . أما المنازل التى شيدت فى حرم أملاك الأوقاف الملكية أو الدينية ومساكن خدم المنازل ، فأمرها واضح ولا لبس فيه . ولكن ماذا نقول عن البيت الريفى الذى خصص للكاتب فى مسقط رأسه مكافأة له على تفوقه . أما المنازل التى أقيمت فى وسط مدينة تل العمارنة فكيف نصنفها ؟ أياً كان الأمر ، فسواء اعتبرناها مساكن مخصصة لكبار الموظفين أو مساكن خاصة ، فمما لا شك فيه أنها مساكن فسيحة وفخمة وتعتبر شاهداً على مستوى اجتماعى رفيع وما يقترن به من ثراء . كما أن العقود التى حفظها لنا الزمن لا تخص فى المعتاد المساكن المملوكة للأفراد أو المبانى الفخمة ، إنما تتعلق بالأكواخ والمخازن ومختلف المبانى الملحقة والمقاصير الجنائزية ومقاصير الأعياد ، وكذلك قطع الأرض الصغيرة التى تتراوح قيمتها بين دبن واحد أو خمسة دبنات من النحاس ، أو ما يعادل كيلو جراماً واحداً أو أربعة كيلو جرامات ونصف .

٤ ـ الممتلكات المنتجة : الأراضى والمواشى .

عند الحديث عن الممتلكات المنتجة ينبغى التمييز بين نوعين : الأول ويشمل الأملاك الكبرى وقطعان الماشية الكبيرة العدد التى يستغلها أصحابها استغلالاً مباشراً ، والتى لا تدخل فى زمام أملاك الأوقاف أو التاج . أما النوع الآخر فيشمل قطع الأرض الصغيرة التى لا تتعدى مساحتها عدة أروريات * ، أو رؤوس الماشية التى فى حيازة الفلاح أو أى فئة أخرى من السكان . ويتم استغلال هذا النوع من الملكية الصغيرة بواسطة أصحابها مباشرة . كما إن بنود العقود ووثائق المواريث لا تنص صراحة على قيمة الأملاك العقارية الضخمة . فالوثائق القانونية الأصلية التى بين أيدينا يتركز تنظيمها حول الأنشطة المتواضعة . أما النصوص المختارة التى تم تسجيلها على النصب الحجرية أو جدران المقابر فقد تشير إلى الضياع الكبرى والقطعان الضخمة ولكن من غير تحديد أسعارها . ونفس الشىء ينطبق على الهبات الكبرى كتلك التى وردت فى بردية هاريس ** . إن أقدم تقييم موثوق فيه لأسعار الأرض قبل العصر المتأخر يرجع إلى عهد تحوتمس الثالث : فالأرض التى تبلغ مساحتها أرورا واحـــدة تساوى ١٥ جراماً من الفضة وهو سعر بخس جداً ، بالمقارنة بأسعار العبيد ، التى سبق الإشارة إليها والأغنام . إن عقود بيع الحيوانات متوفرة بأعداد معقوله . ولكن كل عقد لا يختص إلا بعدد محـــدود من رؤوس الماشيـــة . ويبدو أن سعـــر الثـــور

---

* أروريات : جمع أرورا وهو الإسم الإغريقى لوحدة المساحة المصرية : السشاة . وتعادل السشاة المصرية ٢٧٣٥ متراً مربعاً أى الفدان يساوى واحد ونصف سشاة (المترجم) .

** وبردية هاريس هى أطول بردية معروفة إلى الآن وفيها قام رمسيس الرابع بجمع قائمة بكل هبات رمسيس الثالث إلى معابد الآلهة المختلفة . (المترجم) .

أو البقرة فى الأسرة الثامنة عشرة كان يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ جراماً من الفضة . أما فى عصر الرعامسة فكان سعر أحد الأتباع لا يقل عن ٢٧ جراماً ولا يزيد عن ٣٦ جراماً ، بينما سعر الثور يناهز ١٢٨ جراماً من الفضة . إن هذه الأسعار المبالغ فيها والتى تتجاوز بكثير إمكانيات المشترين تفسر فى أغلب الظن ما اعتاده القوم من شراء بهيمة أو قطيع بأكمله بالمشاركة فيما بينهم . وفى نفس الفترة كان سعر الحمار الواحد يتراوح بين ٢٣ و ٣٦ جراماً من الفضة والخنزير بين ٤ و ٦ جرامات ، والعنزة بين جرام واحد و ٣ جرامات ، وذلك حسب عمر الحيوان وحجمه . ولو عقدنا مقارنة بين أرقام عصور مختلفة أو فى حدود فترة زمنية واحدة للاحظنا فروقاً هامه فى الأسعار . وترجع هذه الفروق إلى تسعيرة الحبوب المرتبطة بمستوى الفيضان . وهذا التفاوت فى الأسعار يبدو ضخماً جداً عند مقارنة أسعار فترة الرعامسة وحدها . ومن الأهمية بمكان توخى الحذر عند مقارنة الأسعار . فتقلب الأوضاع الاقتصادية فى البلاد بين عهد وآخر هو الذى يفسر هذه الفروق الملحوظة فى الأسعار . لقد تضاعفت أسعار الحبوب ما بين ثلاث أو خمس مرات بين عهدى رمسيس الثالث ورمسيس السابع ، ثم انخفضت إلى النصف بين عهدى رمسيس التاسع ورمسيس الحادى عشر . وعلى العكس يمكن مقارنة المقتنيات التى يتم مبادلتها فى معاملة تجارية واحدة . ومثال ذلك ما حدث فى عهد تحوتمس الثالث ، من مبادلة ٣ أروريات من الأرض ببقرة واحدة التى تحدد ثمنها بخمسة وأربعين ونصف جراماً من الفضة . وعلى أساس المعلومات المستمدة من الوثقيتين الوحيدتين اللتين وصلتا إلينا ، يمكن القول أن قيمة الأرض ظلت ثابتة طوال عهد امنحوتب الرابع . وكان متوسط المحصول يقدر بعشر غرائر وذلك على امتداد التاريخ الفرعونى كله . وظلت تسعيرته ثابته فى عهد تحوتمس الثالث . ومن ناحية أخرى كانت المقارنة بين سعر الأرض وقيمة ما تدره من محصول فى عصر الرعامسة أمراً يصعب التأكد منه فى حدود السنة الواحدة ، حتى لو احتسبنا قيمة المحصول قبل استقطاع الضرائب والبذور اللازمة لزراعة السنة التالية وإيجار الأرض - إذا كانت مستأجرة ، ومع أن عصر

الرعامسة كان غنياً بالمعلومات عن سعر الحبوب ، إلا أنه لم يذكر شيئاً
عن أسعار الأرض الزراعية .

٥ ـ المعادن والكماليات

كان سعر الحبوب ، إذن ، يستخدم أساساً لتقييم بعض الممتلكات وما تنتجه من مواد غذائية . ولكن مع اتساع حجم المعاملات التجارية استخدمت المعادن ولا سيما النحاس والفضة فى تقييم السلع المتبادلة . وهنا أيضاً الحذر مطلوب . فقد تغير سعر المعادن على مرّ الزمان . ودلالة ذلك فى الممارسة العملية هو اختلاف المقادير المتعادلة عند تبادل هذه المعادن . لقد انخفض سعر الذهب انخفاضاً ملحوظاً فى عهد امنحوتب الثانى ، ومن الواضح أن هذا الإنخفاض كان يعود إلى تدفق الثروات مع ما حققته مصر من انتصارات فى آسيا . وارتفع سعر النحاس ارتفاعاً طفيفاً فى أواخر حكم رمسيس التاسع . ومع ذلك فإن الفترة الممتدة من بداية الدولة الوسطى وحتى أواخر الدولة الحديثة قد شهدت استقراراً واضحاً ، حيث كان مائة جرام من النحاس تعادل جراماً واحداً من الفضة ، وجرامان من الفضة يساويان جراماً واحداً من الذهب .

وعند فحص الوثائق الخاصة بتسديد قيمة السلع فى الأسواق نلحظ قائمة طويلة من مختلف المقتنيات معروضة لتسديد الفواتير المستحقة على المشترين . ويندر أن يطالب البائع تسديد مستحقاته وفقاً لشروط معينة ، ومن أمثلة ذلك بيع الجارية السورية الشابـة " چمنى حرى منتت " . ولكن فى المتجر الذى احتوى على مختلف السلع والمنتجات كان البائع يقبل عادة ما يعرضه عليه المشترى . وبفضل هذا الأسلوب فى المقايضة نعرف اليوم قيمة كل سلعة فى العصور القديمة . وفى أقدم العصور ، كانت المعادن بمختلف أشكالها والأقمشة هما العملة التى شاع استخدامها فى المبادلات وفى أضخم المعاملات التجارية التى حفظ لنا الزمن شيئاً عنها . كما استخدم الخشب أيضاً فى المبادلات ، وكذلك الجلود والأثاث المنزلى .

ومن الواضح انتشار استخدام معدن النحاس ، وسبيكة البرونز فى المبادلات التجارية . وقد جاء ظهورها على شكل أوانى وأسلحة وآلات وأدوات زينة كالمرايا أو مختلف المعادن الخردة التى اختلطت بعضها ببعض . وفى حين اقتصر استخدام الذهب والفضة على الأوانى الثمينة والحلى فقد ظل استخدام الرصاص والقصدير نادراً جداً فى المعاملات التجارية وكان وزن المعادن أساساً لقيمتها إلى جانب ساعات العمل اللازمة لصنعها ومستوى الصنعة ، اللهم إلا إذا تم تصنيع المعدن ذاته بناء على طلب المشترى . وعلى أية حال فإن سلامة هذا التدبير تتضح من أن المعدن يمكن صهره وتحويله إلى أداة مختلفة ، وهذا ما أشارت به النصوص . أما الأحجار نصف الكريمة فمن النادر أن كانت تدخل طرفاً فى المبادلات التجارية . و نعرف قيمتها بفضل الهبات التى قدمها رمسيس الثالث إلى الآلهة العظمى فى مختلف أنحاء البلاد .

وكانت الأقمشة تنسج أحياناً من أجل استخدامها فى عمليات الشراء المرتقبة . ففى مقابلها يمكن الحصول على قطعة أرض لزراعتها على سبيل المثال . وتتحدد أسعار الأقمشة حسب طولها وحسب نعومة النسيج ورقته . وبشكل عام كان سعرها فى عصرالرعامسة يتأرجح بين جرام واحد أو ٤٥ر٥ جراماً من الفضة . وكانت قطع القماش والملابس والمنسوجات على كل شكل ولون . من الشريط والحزام ، فالنقبة المثلثة الصغيرة ، فالشال والطرح السميكة أو الرقيقة . أما الجلود فكان يصنع منها النعال والجزء العلوى من المقاعد والرّق والأكياس أو القرب . وكان سعرها يناهز ١٨ جراماً من الفضة حسب النوع والحجم . ولكن إنتاج الخشب كان نادراً وقليلاً ، إذ لا ينبت فى مصر سوى أشجار صغيرة على غرار شجر السنط أو الأشجار التى تعطى الأخشاب الليفية على غرار النخيل . أما هياكل العمائر الضخمة ومصارع البوابات فى المعابد أو صناعات الأثاث الدقيقة وأشغال تطعيم الخشب فكانت تحتاج إلى أنواع

معينة من الخشب كخشب الصنوبر أو الأبنوس . وقد اقتضت الضرورة أن يجلبها المصريون من الخارج . فصارت ألواح الخشب العادية وقطع الأثاث المصنوعة منها منتجات تحظى بتقدير الناس وإعجابهم . وقد أمكننا حصر معلومات كثيرة عن أسعار ألواح الخشب والمنتجات الخشبية والآثاث ، ولكن أى جدول للأسعار يفقد دلالته ومغزاه إذا لم تذكر نوعية الخشب المستخدم فى صناعة هذه المنتجات وأطوالها وأشكالها .

وبعد أن رصدنا كل هذه المقتنيات وأسعدنا الحظ وأمدنا ببعض المعلومات حول قيمتها النسبية أو المطلقة ، فهل نجد ضالتنا فنتوصل إلى تحديد مستوى معيشة مختلف فئات المجتمع المصرى القديم ؟ إن معلوماتنا الحالية لا تساعدنا على ذلك . وحسبنا أن نخطو الخطوة الأولى فى هذا الدرب ، علنا نصل إلى هدفنا المنشود .

الفصل الرابع

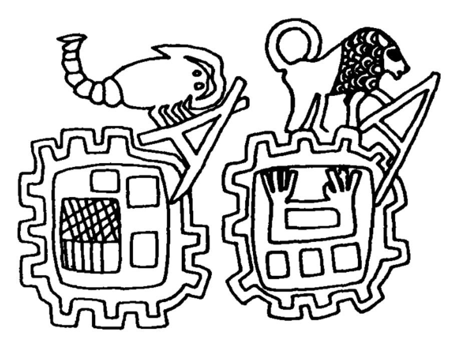
البيئة المصرية

عندما يستعرض المصرى القديم مقومات البيئة التى يعيش فيها ، أو يصور منظراً طبيعياً ، أو يسترجع ذكريات مدينة . فإن له هدفاً واضحاً محدداً ، وهو ببساطة حصر الرموز التى تتكون منها بيئته المهنية أو مقتنياته ، أو تحديد معالم حدث معين أو توضيحه بالصورة أو الدفاع عن موضوع فكرى أو عقائدى . فهل تصل بنا السذاجة إلى تصديق كل ما يرويه ؟ فنسلم دون تمحيص بالمشاهد التى ينقلها إلينا بخلفيتها الطبيعية أو فى إطارها المصطنع . وهل ينطلى علينا بعد ذلك زيف أوصافه ؟ ولكن لا يسعنا إلا أن نعتمد على مختلف أوجه هذا الفن النمطى ، إذ بمضاهاة شواهده بالشواهد التى جمعها علم الآثار ، نتوصل إلى بعث بعض العناصر التى شكلت البيئة التى عاش فيها المصرى القديم من ناحية ، وكيف تصورها هو نفسه من الناحية الأخرى .

١ ـ التجمعات السكانية

مع مطلع تاريخ مصر انتشرت فى أرجاء البلاد مراكز حضارية حقيقية محصنة . ويظهر ذلك بوضوح على صلايات العصر الثينى التى تصور مدناً نهضت على أساس مخطط معمارى مربع واضح تميل زواياه إلى الإستدارة ويحميها سور مسنن . وبدراسة أطلال مواقع أقدم التجمعات الحضرية فى تاريخ وادى النيل ، ومنها على سبيل المثال أبيدوس والفنتين نتأكد من سلامة الرسومات المبسطة غير المنتظمة التى توفرها لنا التصاوير القديمة وتميط اللثام عن بدايات فن تخطيــط المدن .

وكانت هذه المدن عواصم للأقاليــم ، وترجع شهــرة بعضهـــا إلـــى



شكل ٧ : مدن مصرية . تفصيل عن صلاية المدن . المتحف المصرى بالقاهرة .

عوامل دينية مثل مدينة أبيدوس . ويشكل البعض الآخر نقاطاً استراتيجية لا يمكن الإلتفاف من حولها على غرار الفنتين . وانتشر فى مصر العديد من المدن لها مستوى عادى من الأهمية ، يستحيل علينا فى الوقت الراهن تقدير عدد سكانها ولو بصفة تقريبية . ويبرز من بين هذه المدن مدينة منف أولى عواصم مصر الموحدة .

إن الأوصاف التى أوردتها النصوص المعاصرة لتأسيس منف وتطورها هزيلة وشحيحة . ويبدو أن إسم " الجدار الأبيض " الذى عرفت به قد جاءها من السور الذى كان يحيط بأحيائها الرئيسية . وقد شيدت المدينة فى منطقة انتشرت فيها الوديان . ومن المستبعد أن تكون المدينة حتى فى عصورها القديمة قد انحصرت فى مساحة صغيرة . كما نعرف أيضاً أن المصريين قد شيدوا سداً لحماية الأحياء السكنية من طغيان فيضان النيل كل سنة . وذاعت شهرة منف ، حيث كانت المقر الرسمى لملوك مصر طوال الدولة القديمة . وفى نهاية المطاف عرفت الأجيال اللاحقة العاصمة بإسم " من نفر " ، وهو إسم مدينة بيبى الأول الهرمية التى شيدت فى الغرب على حافة جبانة سقارة الملكية . وجاء الإغريق ليحوروا الإسم إلى

" ممفيس " وأهملت المدينة أكثر من مرة وحلت محلها عواصم أخرى وإن لم تنافسها فى موقعها المتميز ، فظلت مع ذلك أولى المدن الإدارية فى البلاد ، وقد ساعد موقعها عند رأس الدلتا على تطوير مينائها * ، ويرجع الفضل فى زيادة أهميتها التجارية والتكتيكية فى عصر الدولة الحديثة ، إلى ترسانتها البحرية ومخازنها الضخمة .

وظلت منف النموذج الأمثل لأمهات المدن ، ولم تنافسها الشهرة سوى طيبة التى احتلت مركز الصدارة بحلول الأسرة الحادية عشرة ، واختارها ملوك الأسرة الثامنة عشرة مقراً رسمياً لهم لقربها من مسقط رأسهم . إن معارفنا للأحياء السكنية ضئيلة إذا قورنت بما نعرفه عن المناطق المقدسة التى شيدت فوقها المعابد والمساحات التى تضم جبانات المدينة . ورغم ذلك فإن ما تبقى من أطلال هذه المدينة العظيمة يعطينا أكثر من مجرد فكرة بسيطة عن مجدها الغابر .

كان البر الأيمن (هو البر الشرقى) من النيل يضم القصر الملكى حيث مقر الحكومة ومنازل أعيان البلاد ونبلاتها إلى جانب مقاصير أمون وموت وخونسو ** ومونتو *** . لقد شيد تحوتمس الأول خزينته قرب حرم معبد مونتو . واحتفظت مقابر الأعيان المنتشرة فى البر الغربى على تصاوير بعض المنازل الحضرية ذات الطابق الواحد يعلوه سطحاً . ويحيط به النخيل والشجيرات التى تميزت بها الأحياء الراقية . وبينما لا توجد

* وهو معروف بإسم " بروىفر " أى الإبحار الجميل . (المراجع) .
** وهى المعروفة اليوم بإسم معابد الكرنك وأهمهم معبد آمون - رع .
*** مونتو : كان إلهاً رئيسياً منذ القدم فى طيبة . ومنذ الدولة الحديثة عبد كإله للحرب وحامى للملك .. وكان إلهاً محلياً فى أرمنت والطود والمدامود . (المترجم) .

مشاهد للأحياء المتواضعة فإن هذه المقابر تزخر بالمشاهد التى تصور ضفاف النهر بفتنته وسحره الأخاذ . وقد غصت بالتجار والحمالين الذين يتجولون وسط الحوانيت الصغيرة التى تنهض على مقربة من السفن الراسية . ولعل أبرز مثال لذلك مرسى معبد آمون عندما تنتقل إليه منتجات أملاك الإله المنتشره فى طول البلاد وعرضها .

وفى البر الغربى مازالت أطلال المعابد الجنائزية باقية على امتداد حدود الأرض الزراعية وفوق التلال الصحراوية المعزوة بجبانات الملوك والأفراد . وفى الأطراف الجنوبية تقع أطلال قصر أمنحوتب الثالث الضخم والميناء الذى يخدمه ، على مقربة من بقايا موقع عسكرى يقع على حافة الصحراء . ومن بردية من عصر الرعامسة ، نعرف أن مدينة طيبة الغربية الكبرى كانت تمتد على مسافة عدة كيلو مترات بمحازاة النيل وتضم مساكن الكهنة والحدادين والأطباء وصغار الموظفين وبعض المسئولين المحليين إلى جانب المراكز الدينية وحوانيت الأغراض الجنائزية . وقد صورت بعض هذه المساكن على جدران عدد من المقابر محاطة بالحدائق الصغيرة . أما قرية عمال الجبانة فتقع فى بطن أحد الوديان الصحراوية بعيداً عن وادى النيل ، وتعتبر أسوارها المتتالية وجدران أحدث مساكنها من أفضل ما أبقاه لنا الزمن ، وخير شاهد على العمارة المدنية فى الدولة الحديثة . وهذه الأسوار المتتالية لا تشكل تحصينات لحمايتها بل ترسم حدود التجمع السكنى فقط . وتستند المساكن المزدوجة إلى هذه الأســـوار باستطالتها وضيقها وكأنها تتزاحم متكأة بعضها على بعض ، وتخترقها حارات من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب . وإذ عاشت هذه القرية طويلاً على مر القرون فإن شكلها الخارجى يبدو عشوائياً وغير منتظم ، ولا يوجد فيها أرض فضاء أو مسطحات خضراء . وقد تتجمع صوامع الغلال خارج الأسوار ، وفيها يحتفظ أهل القرية بمخزون الحبوب اللازم لغذائهم . وهناك أيضاً شيدت

الهياكل والقاعات المخصصة للاجتماعيات .

ولم تصلنا أوصاف أدبية عن مدينة طيبة ، شأنهـا في ذلك شأن منف . ومع ذلك فقد أشار الكتبة عند حديثهم عن مقر ملوك الرعامسة في شرق الدلتا إلى ما اتصف به هذان النموذجان من أوصـاف . فيقولون : " أمر صاحب الجلالة ـ له الحياة والرفاهية والصحة ـ بأن يشيد له مقر جديد أطلق عليه " العظيم الإنتصارات " . ويقع بين بلدان المشرق ومصر حيث يتوفر الطعام ومواد الغذاء . ويشبه تخطيط مدينة طيبة وهو خالد على مر الدهور على غرار مدينة منف . والشمس تشرق وتغيب في أفقه . ويترك الناس جميعاً بيوتهم ليقيموا على مقربة منه . الحي الغربي هو حي آمون . والحي الجنوبي للإله ست . والحي الشرقي للإله عشتارت * أما الإلهة واجت ** فتسكن الحي الغربي . وقصر الملك أشبه ما يكون بأفق السماء ... "

ينتمي هذا النص إلى أدب المناسبات ، وهو غني بالاستعارات البلاغية . ولكنه هزيل وفقير من ناحية أوصافة . وقد وصلنا نص آخر يدور حول نفس الموضوع وقد توخى عرض معلومات دقيقة ولكن فيما يتعلق بموارد المدينة التي لا تنبض . ولا يشير النص إلى الحدائق والبحيرات التي تزينها ولا إلى الريف والميناء إلا عرضاً .

---

* آلهة أسيوية ، قدمت إلى مصر خلال الأسرة ١٨ وأصبحت زوجـــة الإلـــه ست . (المترجم)

** واجت : إلهة من الدلتا اتخذت شكل الكوبرا ، عبدت في مدينة بوتو (تل الفراعين حالياً ـ شمال الدلتا) . (المترجم) .

ورغم ما يؤكده الكاتبان فى هذين النصين فإن الفجوة شاسعة بين ما يقولونه وبين واقع المجموعات السكانية فى العاصمتين الشهيرتين اللتين تعتبران نموذجاً واستثناءً . وحيث تعذر علينا عمل حصرٍ بفئات التجمعات السكانية فى مصر ، فسنكتفى بالحديث عن التقريظ الذى خصصه الكاتبان لوصف مدينة " پر رعمسو " * فتؤكد أن هذه التجمعات السكانية قد احتفظت بروابط وثيقة فى جميع العصور مع المناطق الريفية . إذ لا يمكن للمدن بما فى ذلك العواصم ، كما لا يمكن للقرى أن تعيش فى عزلة تامة عن الحقول وبساتين الفواكه التى تلتف من حولها والحدائق المنتشرة فى قلبها . ولذلك كان من الصعوبة بمكان أن نتعرف بوضوح على المدن الريفية المحض وسط هذه التجمعات السكانية

* هى عاصمة رمسيس الثانى المعروفة باسم " پى رمسيس " أو " دار رمسيس " التى شيدت على أطلال " أواريس " عاصمة الهكسوس . وهى تحتل الآن المساحة التى تضم إلى جانب تل الضبعة بشرق الدلتا عزبة رشدى الصغيرة ، والختاعنة وقنتير ، والآراضى الواقعة بين هذه القرى جميعاً (المراجع) .

٢ ـ الريف

لا تهتم معظم النصوص بالريف سوى كمصدر للغذاء اللازم للحضـــر " فالبرك تعج بالأسماك وبحيراتها تغطيها أسراب الطير ومروجها خضراء بما فيها من نباتات إلخ .. " كذلك الصور التى تغطى جدران المقابر فلا وظيفة لها سوى إظهار هذه المقولة . فتكرار تصوير الحقول وأشجار الفواكه والكروم تأكيد على استكمال نموها وانتظار ثمارها . وتصوير البرك تعبير عن وصف القَنَص والأسماك والمراعى . ولكن يحدث فى بعض الأحيان أن يصبح المقصود من تصوير منظر طبيعى أمر آخر غير مجرد التفكير بالإمكانيات الاقتصادية التى ينطوى عليها . فعالم النبات والأحياء المائية من المواضيع التى أجتذبت الفنانين والرسامين وسحرت ألبابهم . إلا أنها استخدمت أيضاً كعناصر زخرفية فى قصور ملقاطة * وتل العمارنة . وكإطار لوصف أحداث الأساطير المصرية . وتسجل جدران الهياكل أحياناً مناظر مرابض الحيوانات المقدسة . ومثال ذلك مريض غـــزلان الآلــهـة " عنقــت " فـــى جزيـرة سهيـــــل ** . وخلفيـة العديد من الرسومات التوضيحية لفصول كتاب الموتى تمثل الطبيعة . كما أن صانع النماذج الحجرية له أحياناً نزعات موسوعية على غرار مناظر " قائمة فصول السنة " فى معبد الشمس الذى أقامـه " نى وسر رع " فى أبو غراب *** ، وكذلك " حديقة النباتات " التى أقامها تحوتمس الثالث

---

* تقع ملقاطة فى الطرف الجنوبى من البر الغربى لمدينة الأقصر على حافة الأرض المنزرعة (المترجم) .

** تقع جزيرة سهيل على بعد ٤ كيلو مترات جنوبى أســـوان وكـــانت " عنقت " (انوكيس باليونانية) الهتها الرئيسية . (المترجم)

*** نى وسر رع - إنى هو خامس ملوك الأسرة الخامسة . أما أبو غراب فتقع بجبانة منف جنوب أهرامات الجيزة (المترجم) .



شكل ٨ : مربض الغزلان المقدسة للإلهة " عنقت " مشهد من مقبرة " نفر حوتب " بدير المدينة .

فى الكرنك . وحتى مشاهد الزراعة وتربية المواشى التقليدية ومشاهد الصيد البرى والصيد البحرى هى أيضاً تكشف فى أغلب الأحيان عن شطحات من جانب الفنان . فالحقل الذى يبدو لأول وهلة خال من العيوب يكتشف فيه المدقق بعض الأعشاب الرديئة . ونرى أسراباً من العصافير الملونة فوق شجرة سنط ! أو تمساحاً قابعاً فى قاع مجرى مائى بينما قطيع يعبر عند مخاضة * . أو عجلاً يحنو على أمه فيلامسها بلسانه .

ومجمل هذه التفاصيل الصغيرة التى نكتشفها كل على حدة ، تسهم فى بعث الحياة فى مشاهد ريفية فرضت عليها مواضيع نمطية .

ويصبح التلميح التصويرى أحياناً أكثر عمومية وأقل عقلانية فى سبيل إظهار منظر طبيعى أكثر شمولاً . ولكن مع مزيد من الدقة فى تحديد أوصاف وشكل المكان تجسم الأرضية وتتخذ أبعاداً مادية وهذا بتحديدها ، كما جرى العرف بخط أسمر . ويتخذ مساراً متعرجاً عبر الحقول والأشجار ليوحى بتجسيم الصورة ، وكذلك تنحنى مجارى المياة وتتعرج وتتقاطع فتقسم أرضية المشهد إلى عدد من الصفوف غير المنتظمة فتعطينا انطباعاً بأن للمشاهد أحجاماً وأبعاداً مختلفة . إن هذه المحاولات التى تمت على استحياء لتجسيم المناظر الطبيعية قد تبقى غير قادرة على استثارة مخيلتنا بدون الإستعانة بما تقدمه دراسة البيئة الطبيعية لمصر المعاصرة . وقد سارت هذه الدراسة فى خط مواز مع دراسة باطن الأرض من خلال عمليات جس التربة باستخدام أساليب البحث الجيولوجى إلى جانب دراسة تغيرات مجرى النهر . إن الوادى عريض أحياناً فى جنوب مصر . ولكنه يضيق فى أماكن أخرى ويحفه من الجانبين هضبتى الصحراء الشرقية والغربية . وإذا انتقلنا من أقليم إلى

* وهو موضع ضحل الماء يخوضه الناس مشاة أو ركباناً . (المترجم) .

آخر ننتقل من بيئة طبيعية سهلية إلى أخرى جبلية . ويستمد الريف فى مصر مصدر حيويته الحقيقية من وجود نهر النيل والقنوات التى تتفرع منه . وكان الوادى ينحصر من قبل فى المناطق التى تغمرها مياه الفيضان مع حلول الربيع . وكانت الأراضى المنخفضة مهددة سنوياً بارتفاع منسوب المياه فيها . ولذا شيدت المدن والقرى فوق الروابى ، سواء كانت مدرجات رسوبية أو تلال أو أراضى مرتفعة . والواقع إننا لا نعرف سوى القليل عن المساكن الريفية رغم ما وصلنا عنها من أوصاف رائعة :

" لقد شيد " رعيا " داراً جميلة على شاطىء النهر ، قبالة مدينة أطفيح (...) (؟) وتحيطها الأشجار من كل جانب .. وتجرى قناة أمامها ، ويشمل الهدوء المكان . ولا يقلق مضاجع أهل البيت سوى هدير الأمواج . ومنظر الدار يسعد النفس . وتغمرنا البهجة بمجرد أن نعبر باب المنزل . وإذا دلفنا إلى قاعات الاستقبال وصلنا إلى ذروة المتعة فكفَافُ الأبواب والشبابيك مصنوعة من الحجر الجيرى الجيد المجلوب من طره مدون عليها ومنقوشة . وقد تم تجديد مصاريع الأبواب . وطعمت الجدران باللاز ورد . وامتلأت الصوامع عن آخرها بأجود أصناف الحبوب والغلال . وتملأ حظائر الطيور بالأوز الرمادى اللون . وتغص الزرايب بالأبقار . بينما أعدت بركة لتربية وتكاثر البط والأوز . وفى الإسطبل تقف الجياد . بينما ترسو القوارب والصنادل والسفن المعدة لنقل الماشية عند الشاطىء .. "

صحيح أن العرض السابق بدأ بالحديث الشيق والشعور بالبشر والسعادة عندما ينعم الإنسان بالإقامة فى مثل هذه الضيعة . ولكنه سرعان ما يتطرق إلى استعراض ممتلكات رب البيت دون أن يحيد عن الموضوع الأصلى .

وتختلف البيئة الطبيعية فى الدلتا عن مثيلتها فى الوادى . ففى الدلتا تكثر المجارى المائية والمستنقعات والبحيرات . وتضم المملكة النباتية البردى والبوص ومختلف النباتات المائية على وجه الخصوص إلى جانب شجر الكروم والفواكه والبساتين . كما تمتد بمحازاة ساحل البحر المتوسط الملاحات التى لم يتوقف استغلالها حتى الوقت الحاضر . وتنتشر التجمعات السكانية فى النجوع . وقد روعى عند تشييدها تضاريس الأرض وأن تكون بعيدة عن مياه الفيضان . فقامت فوق الروابى الطبيعية التى تعرف بالجزر أو شطآن الترع والقنوات بعد تعليتها بالتربة المتخلفة عن عمليات حفر وتطهير المجارى المائية . ولأسباب تاريخية ودينية وتجارية تأسست مدن رئيسية على فروع النيل الكبرى . وبمرور الزمن تكونت روابى صناعية فأقيمت المساكن الحديثة على أطلال المساكن القديمة ، وهو ما نطلق عليه بالعربية " كـــوم " أو " تل " .

ففى الدلتا والوادى على حد سواء تعتبر شبكات القنوات والترع عنصراً أساسياً فى تكوين البيئة الطبيعية كما تؤثر فى تشكيلها . وهذه الشبكة المائية هى مصدر الحياة والمأوى الدائم للأسماك وقنص الأحياء المائية . وهى تمثل أول شبكة مواصلات تربط أطراف البلاد إلى جانب الدروب القديمة . وقد ارتبطت عملية تصوير شبكة المجارى المائية بوظيفتها فى النقل والمواصلات . ومن هنا تنبع أهمية الأسطول النهرى فى مصر القديمة . وقد ترتب على ذلك ، الاهتمام بإعداد أحواض السفن فى الموانىء والمراسى لاستقبال جميع السفن على اختلاف غواطسها . ومن هنا ظهرت ضرورة بناء الترسانات البحرية والمخازن والورش والأسواق الصاخبة . ولم يميز فن التصوير بين ضفاف النهر وشطآن الترع أو القنوات التى أصبحت مناطق جذب يلتقى فيها سكان القرى وملاحى السفن القادمين من داخل البلاد أو خارجها .

وقد يحدث أحياناً أن ينسى المصريون الظروف المادية ومتغيراتها تاركين العنان لخيالهم . فتفتقت قريحةأدباء الدولة الحديثة عن أعـــذب " أغانى الحب " وأكثرها تعبيراً عن الموقف النفسى تجـاه الطبيعة المحيطة . وتدور وقائع هذه الأعمال الأدبية فى الريف . وهى مستوحاة من الأشجار والحدائق المختلطة بالشباب لتعطى لغة شعرية رقيقة منمقة ، تقول :

" (...) أنا ملك يديك كما الأرض
التى خططتها زهوراً
ونباتاتاً بعبيرها الرقراق .
ما أجمل الترع والقنوات شرايين الأرض
التى حفرتها بيديك
فاجتذبت نسيم الشمال المنعش !
ياله من متنزه رائع (..) "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية للنص المصرى القديم

P. Posener - Kri`eger , d, apr`ess. Schott . les chants d`amour de l` Egypte Ancienne , Paris, 1956 , P. 77)

٣ ـ الصحارى

شغلت الزراعة مساحة ضيقة من أراضى هذا البلد ، فطغت المساحات الشاسعة من الصحارى القاحلة الجرداء على حياة المصرى اليومية . والصحارى أنواع : أولها الصحارى المتاخمة للوادى التى تبدأ حيثما تنتهى الأراضى المروية بمياه الفيضان . إنها صحارى الجبانات حيث النباتات الشوكية والعشبية . ثم ننتقل بعد ذلك إلى الواحات وهى النقاط المتبقية فى الصحـراء الغربية من وادى نهرى عتيق مواز لنهر النيل . ثم نصل إلى الجبال الغنية بثرواتها المعدنية المتنوعة وتقع على مسافات مختلفة من المناطق المأهولة بالسكان ، وينتهى بنا المطاف إلى المناطق المتاخمة للحدود أو المطلة على البحر الأحمر وتحميها الحصون أو توجد بها الموانىء أو حيثما يعيش البدو الرحل وتجتذبهم سهول مصر تارة أو يعادون سلطاتها تارة أخرى .

ولم تهتم المقابر سوى بتصوير النوع الأول من هذه الأراضى الجرداء ، سواء فى المشاهد التى تمثل المقبرة ذاتها أو ما يرتبط بها من احتفالات أو فى المناظر الرمزية التى تمثل البقرة حتحور وهى خارجة من جبل طيبة ، أو فى مشاهد القنص وتربية الأغنام . وهذه المناطق تحتل منزلة وسط بين الأرض الزراعية والصحراء الحقيقية . فهى أقرب إلى السافانا أو بيئة الإقليم " الساحلى " * منها إلى المناطق الصخرية الجرداء فى الجهـات الأكثر بعداً .

أما واحات الصحراء الغربية فكانت منذ عصور ما قبل التاريخ آهلة بالسكان ولكنها استعمرت منذ الدولة القديمة . وتمتد الواحات إلى الجنوب فى نطاق منخفض مستعرض فى اتجاه دارفور . واشتهرت تلك الواحـات

---

* نسبة إلى الساحل ، وهى مناطق قريبة من السواحل الشمالية فى تونس والجزائر . (المترجم)

التى كانت تدار بواسطة حكام ، ببعض أراضيها الزراعية . وتعتبر الكروم من أهم موارد هذه المراكز الإدارية البعيدة وقد اكتشفت مؤخراً فى بلاط ، عاصمة هذه المراكز الإدارية بالواحة الداخلة . وهى ترجع إلى آواخر عصر الدولة القديمة وتغطى مساحة ثلاثة هكتارات * . ويحيط بها سوراً مربع الشكل . وتمتد الضواحى خارج هذا السور وهى محاطة أيضاً بأسوار وبإكتشاف الفواخير يتأكد لنا وجود حرفة محلية متطورة نوعاً ما . كما تدخل قائمة مناظر الواحات قطعان الحمير وملح النطرون المنتج فى أكثر الواحات تطرفاً نحو الشمال ** وهو من المنتجات اللازمة للمارسات الجنائزية المصرية .

وقد تعددت الثروات المعدنية فى الهضبة الجبلية التى تحيط بوادى النيل ، وتنوعت طبيعتها الجيولوچية . ومنذ وقت مبكر كانت هذه الهضبة مسرحاً نشط لأعمال المحاجر والمناجم التى استقبلت بصفة دورية البعثات التى تتفاوت أهميتها حسب الظروف والحاجة . وفى بعض العصور وطبقاً للسياسية التى يرسمها ملوك مصر تزايد استغلال بعضها دون البعض الآخر . وقد احتفظت هذه الأماكن ببقايا استخراج الحجر والمعادن وغيرها من الخامات . وبقيت أطلال مساكن العمال والهياكل التى شيدها هؤلاء الرجال سواء كانوا جنوداً أم عمال غير مهرة أو حرفيين . إذ كان عملهم يقتضى أن يعيشوا بعيداً عن عائلاتهم وآلهتهم لفترات قد تطول أو تقصر .

---

* أو ما يعادل سبعة أفدنة (المترجم) .

** كلمة (واحة) مصرية قديمة وكانوا يطلقونها كما جاء فى نصوص معبد أدفو على سبع واحات هى : الخارجة والداخلة والفرافرة وواحة بين الفرافرة والبحرية ثم البحرية وسيوة ووادى النطرون . أما الآن فالواحات المعروفة فى الصحراء الغربية خمسة فقط . (المترجم) .

أما التصوير الوحيد لهذه المناطق الجرداء الذى سلم من عوادى الزمان فيمثل ما يشبه " خريطة للبحث عن كنز " لقطاع من وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية . والخريطة مرسومة فى خطوط مبسطة على لفافة من ورق البردى . وقد رسمت الجبال مستوية على جانبى الدروب التى تشق المنطقة وتوضح مواقع مناجم الذهب والصخور التى تحتوى معدن الفضة وأكواخ عمال المناجم وموقع بئر ومعبد الإله آمون ونصب حجرى للملك سيتى الأول الذى شيد سلسلة من مراكز توفير الماء على امتداد أحد الدروب صوب هذا الموقع ، لتيسير رحلات الفرق المرسلة للعمل فى مناجم الذهب الأخرى . وتتولى فرق خاصة من الشرطة مسئولية حراسة هذه المراكز الإدارية .

وتنتشر قبائل البدو ذات الأصول المتباينة ، عند سواحل البحر الأحمر الجرداء وفى شبه جزيرة سيناء وعند أقاليم الحدود الليبية فى غرب الدلتا وفى النوبة السفلى * . وقد كانت تعيش فى أمن وسلام معتمدة على الرعى وتربية المواشى . وقد كانت هذه القبائل تهدد المصالح المصرية فى القطاعات الاستراتيجية بين الحين والآخر ، مدفوعة باحتياجاتها الشخصية أو بضغوط من العناصر الخارجية . فالحملة التى أرسلها پيپى الثانى إلى سواحل البحر الأحمر قد أبيدت عن بكرة أبيها على أيدى البدو ، عندما كان أفرادها يهمون بتجميع أجزاء السفن التى جاءت من الوادى عبر دروب الصحراء والتى كانت ستبحر بهم تجاه بلاد بونت . ولصّد هذه الهجمات والمهاجمين الأكثر خطورة شُيدت التحصينات فى مختلف المناطق الحدودية مع حلول الدولة الوسطى . وكانت إلى جانب مهمتها فى الحفاظ على أمن البلاد كانت تقوم أيضاً بدور المراكز التجارية فى المبادلات

* أى النوبة الشمالية الغربية من أسوان (المراجع)

الاقتصادية المنتظمة بين مصر وجيرانها . وفى عهد سيتى الأول شن حملة ضد البدو الثائرين فى شمال سيناء . وبهذه المناسبة تم تصوير الحصون التى شيدها الملك فى هذه المناطق فى ترتيبها الجغرافى على الجدار الشمالى من بهو الأعمدة بمعبد الكرنك . فتبدأ بمركــز الحــدود فــى " ثارو " * ، المطل على قناة السويس حالياً ، وحتى تخوم فلسطين . وقد وصفت فى دقة متناهية عمليات البناء ومكان كل بئر وكل شجرة . كما وصلتنا يوميات أحد ضباط مركز الحراسة فى هذه التحصينات من عهد مرنبتاح ** . وهى تشهد على أهمية النشاط فى مجمـل هذا القطاع . خلاصة القول ، أن صحارى مصر لم تكن أرضاً قفراً ، كما قد يتصورها البعض ! .

* مدينة القنطرة حالياً . (المترجم)

** هو ابن رمسيس الثانى وحفيد سيتى الأول من الأسرة التاسعة عشرة (المراجع) .

٤ ـ الأجانب

ارتبط المصرى مع جيرانه بعلاقات مبهمة شابتها المفارقات . فبينما اجتذبته بلدان اعتبرها بلداناً أجنبية إلا أنه فى نفس الوقت كان يخشى المغامرة التى كانت تعنى فى العصور القديمة شدّ الرحال إلى البلدان البعيدة والسفر إليها . أما وجهة نظر الإنسان العادى فهى تنطلق بكل بساطة من إمكانات مصر العسكرية ، فترى أن الأجانب يشكلون تهديداً خطيراً على مصر ولكنهم أيضاً مصدر عظيم لزيادة ثروات البلاد . وفى أواخر الدولة القديمة ، قبل الكثير من حكام الأقاليم فى الفنتين أن يسيروا على رأس حملات إلى بلاد النوبة بعد أن تغلبوا على مشاعر التردد والقلق التى أثارتها فى نفوسهم شعوب تلك البلاد ، وإن لقى بعضهم حتفهم هناك . وكلفهم بعض الملوك باستشكاف دروب جديدة . فجعلوا من رحلاتهم منتجات متنوعة لم تعرفها مصر من قبل . واضطروا أحياناً إلى خوض المعارك . كما كانوا أحياناً طرفاً فى المواجهات بين شعوب وأجناس مختلفة . وعقدوا الاتفاقيات مع بعضها . ونلاحظ أن جميع التراجم التى روت لنا قصة هذه المآثر تغفل أى وصف للمناطق التى مرت بها هذه الحملات أو عادات شعوبها وعقليتهم . وسارت علاقات مصر بجيرانها الآخرين على هذا المنوال .

وعلى نحت من الأسرة الأولى بصخرة بوادى مغارة ، يظهر فرعون وهو يفتك بعدوه . وظلت هذه الصورة رمزاً يقى مصر من أعدائها ويخلد هيمنتها على جيرانها . ووصلنا ابتداء من الأسرة الخامسة أسلوباً سحرياً آخر يحمل معنى مشابهاً : فقد ظهرت تماثيل صغيرة هى تعاويذ لدفع الشر ، صنعت من الخشب أو الطين النى أو المحروق أو من الشمع أو الألبستر أو من الحجر الجيرى . وقد دونت عليها بالكتابة الهيراطيقية قوائم أسماء الأمراء والأميرات التى تشير إلى بلدانهم . وقد كتبت عليها

عبارات مشينة بهدف الإضرار بهم من خلال المادة التى صنعت منها التعويذة ، كما استهدفت هذه العبارات درأ ما يمكن أن يواجهه المرء من أخطار . وقد تحل الأوانى محل هذه التماثيل الصغيرة كما توجد صيغ سحرية غيرها . فأثناء الشعائر التى تقام احتفالاً بتأسيس العمائر أو المجموعات المعمارية يتم تحطيم عدد من هذه التماثيل ويلقى بها فى حفرة أعدت خصيصاً لهذا الغرض .فتحمى المبنى من قوى الشر المحتملة أياً كانت . وقد اختفت معظم التماثيل التى صنعت من الشمع بسبب الحرائق . وقد استمر هذا التقليد حتى العصر التأخر . وإلى جانب ذلك فقد نقشت قوائم بأسماء المدن أو البلدان الأجنبية التى أمكن لمصر إخضاعها بالفعل أو على افتراض ذلك ، داخل أطر بيضاوية الشكل ربطت بها " بروفيل " لصورة أحد الأسرى . وهذه القوائم موجودة فى الأجزاء السفلى من الصروح والأساطين لاستعراض صورة المهزومين أثناء تقديهم قرباناً للآلهة ، بعد تجريدهم من كل نزعة عدوانية . كما انتشرت عادات شبيهة بالتقاليد السابقة تثبيتاً لسلطة فرعون على أرجاء المعمورة ، على مرّ العصور . أن أكثر المفاهيم نزعة إلى السلام تصور دافعى الجزية من الأقطار التابعة لمصر ، أو تكتفى بذكر أسمائهم وهم يقدمون للملك أو وزيره إسهاماتهم السنوية من رجال وقطعان وجياد ومركبات ومنتجات كمالية .

وكل هذه الاحتياجات الوقائية طقسية كانت أم سياسية ، لا ينبغى أن تدفعنا إلى إغفال حقيقة إندماج الجماعات الأجنبية فى المجتمع المصرى فى الممارسة اليومية ، قبل الألف الأول قبل الميلاد وهذا ما تؤكده العديد من الشواهد .

وإذا أخذنا بصدق موضوع أدبى ذائع الإنتشار ، فإن المصرى الذى يسافر إلى خارج البلاد أو الذى يعمل فى إحدى المحميات البعيدة أو

الذى يختار المنفى لأسباب سياسية فإنه فى جميع الحالات يتحرق شوقاً للعودة إلى مسقط رأسه ويتطلع إلى أرض أجداده ليقضى فيها بقية عمره ، بغض النظر عما سيلقاه فى بلده .

" إنى أقيم فى " كنكناتو " . وليس لدّى كافة الضروريات . ولا يوجد عمال لصنع الطوب . كما لا يوجد قش فى الضواحى . لقد ضاع كل ما جلبته لاستخدامى الشخصى . رغم أننى لا أملك حماراً يمكن سرقته . وأقضى أيامى فى مراقبة العصافير وصيد السمك . إنى أتطلع سنوياً إلى الطريق الصاعد * إلى فلسطين وأرقد تحت شجرة لا تحمل ثماراً (!) صالحة للأكل . فثمارها قد اختفت رغم أنها لم تنضج . ومع شروق الشمس يملأ البعوض المكان . وعند الظهيرة الناموس . وذبابة الخيل تلدغ وتمتص (الدم) من العروق (...) "

إن ما تذكره النصوص عن رحلة مستكشف أعزل أو تحركات جيش لا يتضمن عن خطوط سيرهما شيئاً . ويقتصر الأمر على ذكر أسماء المناطق التى وصلوا إليها أو تلك التى يعبرونها أو كانوا قد عبروها . إن وصف البلدان الأجنبية أمر نادر وشاذ ويقتصر الأمر على حصر الموارد المحلية ، على غرار ما يحدث فى المعتاد عند الحديث عن مصر :

" كانت أرض طيبة أسمها " يا " . إنتاجها تين وعنب . ونبيذها أكثر من مائها . وعسلها وزيت الزيتون فيها كثير متوفر . وأشجارها تطرح الفواكه بأنواعها . وبها الشعير والحنطة والماشية بكافة أنواعها بلا حدود "

(نقلاً عن

(G. Lefebvre op. Cit . P. 11

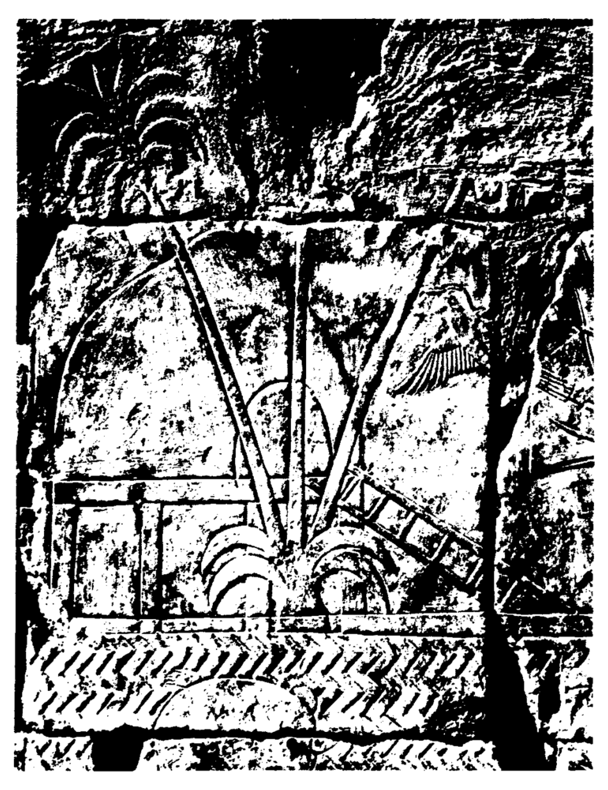
---

* النزول معناه الذهاب إلى الشمال . والصعود معناه الذهاب نحو الجنوب . (المترجم) .

أما مشاهد المناظر الطبيعية من خلال الحملات السلمية أو العسكرية فقد اختصت بها جدران المعابد واقتصرت عليها تقريباً . إذ تقدم جميع مواردها قرباناً للآلهة . ولم يبق من مشاهد بلاد النوبة سوى الصورة التى تقدمها نقوش المعبد الجنائزى للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى . وتحتفظ النقوش بالمثال الوحيد المعروف لقرية أفريقية ترجع إلى العصور السابقة على العصر المتأخر .

وتنهض القرية قرب شاطىء مجرى مائى تسبح فيه السلاحف المائية والأسماك . والأكواخ مرفوعة فوق أوتاد . ويمكن الوصول إليها بواسطة سلم . ولعلاج غياب استخدام قواعد المنظور اختلفت أبعاد المساكن وروعى عدم انتظام ترتيب شجر البخور وشجر الأبانوس . ونشاهد حيوانات متوحشة أو أليفة أو طائراً يتنقل من شجرة إلى أخرى . وبقرة ترقد بجوار أحد الحيوانات . وكلب يجوس الأكواخ .

إن المشاهد التصويرية الوحيدة التى وصلتنا ويمكن تشبيهها بهذا المنظر الفريد ليست فى نفس المستوى من حيث النضارة والحيوية . إنها مشاهد الإستيلاء على الحصون والقلاع الشبيهة بمناظر الجداريات الأشورية . ولكن تدور أحداث اقتحام هذه المواقع المحصنة وهدمها فى جو ريفى لمجرد تصوير الجنود المنتصرين وهم يقطعون الأخشاب ، ويقومون بأعمال الحصاد . فالعمليات العسكرية كانت مجرد مبرر استغله الفنان لتصوير غابات لبنان وتلال سوريا التى تكسوها الأشجار .



شكل ٩ : كوخ من بلاد بونت . مشهد من معبد حاتشبسوت ، بالدير البحرى

الفصل الخامس

الحياة الخاصة

إذا كانت الأعمال التى يكلف بها المصرى بصفته من كبار الموظفين أو مجرد عامل غير ماهر كثيراً ما تضطره إلى مغادرة منزلـه ليعيش بعيداً ، إلا أنه ظل مرتبطاً ببلده وبمدينته . فالمصرى لا يفصل إلا فى القليل النادر بين الوسط العائلى والوسط الاجتماعى أو الوسط المهنى . إن زملاءه فى العمل هم غالباً أبوه أو ابناؤه أو أصهاره ، إلى جانب جيرانه وأصدقائه . ويقيم عادة فى منزل تابع لوظيفته فى الأحياء التى يقيم فيها أقرانه . أما إذا كان من المستثمرين الزراعيين فإنه يشيد بنفسه داره التى تموج بحركة العاملين ومن الذين يشاركونه الحياة اليومية فأصبحوا جزءاً من الأسرة أو كادوا . فقد وصلتنا بأشكال مختلفة معلومات دقيقة عن الحياة الخاصة لأفراد ينتمون إلى شتى الفئات الاجتماعية . ومع ذلك فما وصلنا عن إحدى الجماعات العمالية يعد أفضل تصور تكاملت عناصره من جميع الجوانب . ووقفت الصدفة وحدها وراء هذا الحدث . سنتخذ من هذه الجماعة مرجعاً لنا أو موضوعاً لعقد المقارنات بل والمضاهاة ، حسبما تقتضيه المعطيات التى نحصل عليها من خارج إطار هذه الجماعة .

١ ـ العائلة

تشمل عائلة المصرى بمعنـاها الواسع الآباء والأجداد ، والأبناء والأحفاد ، والأنسباء . وتشكل الإطار الآمن الحصين الذى سجله فى إباء وشمم على العمائر الجنائزية والدينية . ومع ذلك فإننا لا نعرف الإصطلاح الخاص للدلالة عليها خلاف " أهل الدار " . مهما بلغت قوة الروابط التى تجمع الإبن بوالده فمن واجب الأب أن يستحث كل من أبنائه على تأسيس بيته الخاص أى أن يشيد منزلاً أو يرمم المنزل الذى قد يتسلمه عند الإلتحاق بالعمل . ثم يتخذ لنفسه زوجة . وهكذا يجنح المجتمع إلى قدر من تشتت العائلات لتكوين النـواة الأولى لجماعات جديدة محدودة العدد . وهى تتكون من الزوجات وأبنائهم ومن يتكفلهم من الأقارب كالأم الأرملة أو الإخوة والأخوات اليتامى الذين لم يبلغوا سن الزواج بعد ، إلخ ... هذه الجماعات الحديثة التكوين ترحب إذن بالأفراد الذين انعزلوا عن ذويهم أو تباعدوا عنهم ، لا سيما النساء الفرادى أو المطلقات . إن رعاية الوالدين واجب أخلاقى مفروض على الأبناء . يشجعهم على ذلك ، من بين أمور عديدة ، الميراث المرتقب . وهو سلوك شبيه بما يحدث فى الوقت الراهن . فقد وصلتنا فى واقع الأمر وصية بحرمان عدد من الورثة الشرعيين من حقهم فى الميراث . وقد صارت المقبرة فى بعض العصور المكان الذى يجتمع فيه أفراد الأسرة الواحدة، للمرة الأخيرة وإلى الأبد . هكذا اكتشف المنقبون فى مقبرة من عصر الرعامسة على نيف وعشرين مومياء مكدسة فى حجرة دفن واحدة . ولكن ندرة مواضع الدفن التى نجت من اعتداء إلى أن اهتدى إليها علماء الآثار وتم فحصها لا تسمح بالوصول إلى استنتاجات محددة . ومن جانب آخر تشير المعلومات المستمدة من عصور أخرى إلى تخصيص المقبرة للزوجين فقط . فلا يشاركهما فيها أحد ، بما فى ذلك الأبناء الذين توفوا فى سن مبكرة فخصصت لهم جبانات مستقلة .

يبدو أن الزواج فى مصر الفرعونية كان لا يتم إقراره بواسطة مراسم دينية أو وثيقة قانونية . إذ لم يصلنا أى عقد زواج رسمى قبل حلول العصر المتأخر . خلافاً لحالات الطلاق التى تستوجب توضيح المواقف بشأن توزيع الثروة والممتلكات بين الزوجين . فيحتفظ كل منهما بما كان يمتلكه قبل الزواج . ويتم تقسيم كل ما استجد من ثروة وممتلكات بنسبة الثلثين للرجل والثلث للمرأة . ولا يعتبر الزواج بالضرورة مناسبة لإقامة حفل عائلى . ولكن كان يحدث أن يتقدم طالب الزواج بما يشبه المهر للحصول على موافقة والد الفتاة ، تماماً كما يحدث فى مصر المعاصرة .

وكانت إقامة الزوجين فى بيت واحد هى الترجمة الواقعية الملموسة لإتمام القران . فإذا كانت الأسرة المالكة وحدها هى التى تأخذ بتعدد الزوجات ومبدأ زواج الأقارب بدافع من الحرص على شرعية انتقال السلطة الفرعونية ، فما عدا ذلك ، فإنه لم يستدل على وجود مثل هذا السلوك ، سواء بين الطبقات الميسورة أو الأوساط الفقيرة . فالزنا والاغتصاب من الأمور المرفوضة والتى يعاقب عليها . وفى المقابل فقد شاعت حالات الطلاق وتعددت لا سيما بين الفقراء . وكانت القاعدة تقتضى الزواج ثانية فى حالة الترمل أو الطلاق . والعزوبية اعتبرت سلوكاً غير اجتماعى . ولم يذكر اللواط إلا فى سياق الأساطير . الأمر الذى لا يساعدنا فى الحكم على موقف المجتمع المصرى من هذا الأمر . وإذا كان المجتمع لا ينادى بالاستمتاع المبالغ فيه فيما يتعلق بالأمور الجنسية إلا أنه كان يشجب إى استيحاء لا مبرر له . إن الغزل الرقيق يطفو على السطح فى " أغانـــى الحب " . لقد سبق غزل " نشيد الأنشاد " * والشعر العربى .

* أحد الأسفار المقدسة عند اليهود والمسيحيين (المترجم) .

تقول " أغانى الحب " :
" (...) لقد وهبت لك قلبى .
من أجلك إنى أسير على هواه ،
عندما ارقد بين ذراعيك .
فإنَ رغبتى فى أن أقدم على ذلك ،
هو الكحل الذى تكتحل به عينى (...) ،،

نقلاً عن الترجمة الفرنسية

(P. Posener Krieger , O.C., P. 76)

لقد وصلتنا رسومات وتماثيل وبردية وصفت بدافع الحياء إنها بردية " غزل " ولكنها ليست سوى مجرد بذائة ساذجة ومرحة .

ويغلب على العلاقات الزوجية كما تظهر فى فن المناظر ، سمة المودة والاهتمام الحانى . ولا يتخلى النحاتون والرسامون إلا فى القليل النادر عن قائمة الأوضاع التقليدية إلا إذا استثنينا عصرى العمارنة والرعامسة الذين خلفا لنا لقطات من حياة العائلة المالكة الخاصة لها سمات تلقائية جعلها أقرب إلى قلوبنا ومشاعرنا . ويميل أدب القصة إلى تصوير الغيرة والزنا أكثر من الحنان والهوى . أما التقارير الرسمية والنصوص القانونية فقد أصبحت بدورها صدى للمظالم والمنازعات والمشاجرات التى تموج بها

بيوت هذا العصر ، بما فى ذلك الحريم الملكى الذى كان المكان المفضل للدسائس والمشاحنات . وتؤكد المراسلات الحقيقية أو الخيالية على العلاقات المشبعة بالحب والود والمثال على ذلك هذا الخطاب الموجه من أحد الكتبه إلى زوجته المتوفاة :

" أيها التابوت المبجل حيث ترقد منشدة آمون ، الأوزيريـــس *
" أختاى " ! إنصت إلىّ ، وبلغ (هذه) الرسالة . أنت القريب منها أطرح عليها هذا السؤال " كيف صحتك . وأين تقيمين ؟ " وأخبرها " باللمصيبة إذ فقدت " أختاى " الحياة ! " هكذا يتحدث أخوك ورفيقك وياللمصيبة ! أنت الجميلة جداً ! أنت التى لا مثيل لجمالك ! وكان يستحيل على المرء أن يجد شيئاً قبيحاً فيك . إنى أناديـ(ـك) كل لحظة . ردى على (من يناديـ)ـك .. ... " .

الأسرة المصرية العادية أسرة ولود . وكان يبدو أن عدد الأولاد فى البيوت كان لا يتعدى الإثنين فى المتوسط لارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال أو لأنهم يرسلون فى وقت مبكر إلى المدارس أو إلى حيث يتدربون على حرفة . وفى حالة إنفصال الوالدين ، لا تشير وثائق الطلاق أبداً إلى من هو كفيل الأطفال . ويبدو أنها كانت مسئولية الأب كما يستدل من جميع الحالات التى نعرفها . ولكن من المحتمل أن الوليد كان يظل لعدة سنوات فى حضانة الأم . وليس هناك مبرر لإثارة المشاكل حـول هذا الموضوع . كما أن المسألة لم يترتب عليها مصاعب من أى نوع . ومن ناحية أخرى كانت مشكلة عقم الأزواج تسبب لأصحابها الهموم والمشاغل على ما ابتلاهم الدهر . وإذا لم تفلح الصلوات وتقديم النذور للآلهة المختصة فى الوصول إلى نتيجة ملموسة ، وعندما تبوء جهود الأطباء والسحرة بالفشل ، فلا مجال أمامهم سوى إسقاط هذه العاطفة على طفل أنجبه الغير . ولكننا نجهل إذا كان هذا الإجراء من الناحية القانونية هو ضرب من ضروب الوصاية أو أنه عملية تَبَنّى حقيقية .

* كان موت أوزيريس الذى تلته قيامته باعثاً على الإعتقاد بأن كل شخص يتبعه يبعث معه .. وأصبح الملك الميت أوزيراً منذ نهاية الأسرة الخامسة . ولم يصبح الميت من الشعب أوزيراً إلا عند مطلع الدولة الوسطى . (المترجم) .

٢ ـ المنزل

سبق لنا فى أكثر من مناسبة أن تحدثنا عن المبانى والسمات العامة للمساكن سواء فى الحضر أو فى الريف وحيازتها كحق من حقوق الوظيفة ، كما تناولنا قيمتها المادية . وعلينا الآن أن ندرسها من خلال وظيفتها الخاصة كخلفية للحياة الخاصة . ويميل المرء إلى تصنيف المسكن إلى فئتين كبيرتين : أولاً ، الديار الفسيحة والضياع التى تؤلف حول نواة العائلة جمهوراً من العاملين . ثم البيوت المتواضعة حيث تقيم العائلة بمعناها الضيق المحدد .

فى ظل جهلنا لكل ما يتعلق بالتخطيط الذى على أساسه ينهض أى مشروع زراعى متوسط أو منازل العمال غير المهرة والخدم مقارنة بمنزل رب البيت ، وطريقة تناول وجبات الطعام والعلاقات التى ربطت بين هذا الجمع من الناس ، فنحن مضطرون إزاء هذا الجهل ولتوضيح صورة مساكن الفئة الأولى أن نلجأ إلى التخطيط المعمارى لمنازل مدينة سنوسرت الثانى * الهرمية ومنازل كبار الموظفين فى عاصمة أمنحوتب الرابع (إخناتون) ومشاهد الحياة الخاصة فى مقابر الدولة الحديثة .

يغطى كل منزل من منازل اللاهون مساحة تقدر بحوالى ٢٤٠٠ متراً مربعاً وهى تتكون من قطاعات منعزلة بحيث يسهل تحديد وظيفة كل منها من أول نظرة : للمطابخ والمخازن باب خاص بالخدم . ولها باب مشترك يقود إلى دهليز يفضى بدوره إلى الفناء والباكية الذين

---

* من ملوك الأسرة الثانية عشرة . وهرمه المشيد فى اللاهون عند مدخل الفيوم (المترجم) .

تطل عليه مختلف أجنحة المنزل الخاصة . وهى منفصلة بعضها عن بعض بشكل واضح مميز . وللحظائر مدخل مستقل . وتتكون هذه الدار من ٧٠ حجرة خصص ثلثها لإقامة عامة الناس . أما بقية الحجرات فموزعة بين الأفنية الداخلية التى يبدو أنها لتسهيل الانتقال بين أجنحة المنزل وتخصص للمقابلات والاستقبالات . وهناك قاعة صغيرة ذات أعمدة أربعة ربما استخدمها رب البيت كمكتب خاص هذا إلى جانب مجموعة من الحجرات الموزعة على عدد من القطاعات .

أما منازل العمارنة فهى أقل مساحة من المنازل السابقة . إذ تقدر فى المتوسط بـ ١٢٠٠ م٢ . ومع ذلك فالأجزاء المكونة للمنازل موزعة داخل حديقة مسورة تتراوح مساحتها بين ٢٠٠٠ م٢ و ٤٠٠٠ م٢ . ونلاحظ أن العناصر المعمارية التى ترمز إلى الحظوة والنفوذ متوفرة فى الدار : من بوابات شامخة إلى درج فخم ومدخل مسقوف وقاعات استقبال . هذا إلى جانب وسائل الراحة الأخرى مثل الحمامات التى تظهر هنا لأول مرة . وكان المبنى المخصص لإقامة أهل الدار ينقسم إلى قطاعات مستقلة غير معزولة تماماً عن بعضها . ولكن المبنى كله معزول عن الأقسام المختصة بالخدمات المنزلية كالمطبخ والمخازن والحظائر الملاصقة لسور المنزل الخلفى .

أما مخازن الغلال فعلى العكس نجدها مكشوفة أمام أعين الزوار . أما الهيكل فهو محاط بحديقة صغيرة وله مدخل خاص فخم إلى جانب مدخل آخر بعيد عن الأنظار . وتوضح بعض الصور مناظر الولائم المقامة على أنغام الفرق الموسيقية والتى يحضرها أفراد الأسرة ، أو مناظر أكثر خصوصية تمثل تزيين السيدات وقد استسلمن لوصيفاتهن .

وبفضل البقايا الأثرية والإثنوجرافية والمدونات المتبقية من قرية دير المدينة ازدادت معارفنا حول تنظيم مساكن العمال والحياة داخلها .

يغطى المسكن الواحد مساحة تتراوح بين ٤٠ و ١٢٠ متراً مربعاً . ويتكون فى المعتاد من سلسلة متعاقبة من الحجرات ذات أبعاد مختلفة . وتتكون جميعها من طابق أرضى . وتقع الحجرة الأولى عند مستوى أدنى من الطريق . والمدخل هو مصدر الإضاءة الوحيد . والحجرة مكرسة لعبادة الأجداد وعبادة الآلهة المنزلية حماة الخصوبة والولادة ، وبها مذبح فوقه نصب حجريه وتماثيل نصفية للآلهة المنزلية أما الحجرة الثانية ففى مستوى الطريق نفسه . وهى أكبر من الأولى وسقفها أكثر ارتفاعاً ويدخلها النـــور من خلال نوافذ محمية بشبكة وموزعة فى أعلى الجدران . وسقفها مرفوع بواسطة أسطون مركزى . وبها مقعد . وغالباً ما تزين الأبواب الوهمية جدران الحجرة . وقد صور عليها أمنحوتب الأول راعى القرية وحاميها وأمه أحمس نفرتارى ومختلف الآلهة . إنها حجرة المعيشة . فيها يستقبل أصحاب البيت ضيوفهم ويتناولون الطعام وفيها كانوا بالتأكيد يقضون لياليهم وينامون . تماماً كما هو الحال فى بيوت الفلاحين فى الوقت الراهن . وتشغل حجرة أو حجرتان صغيرتان المكان الذى ترك شاغراً بسبب وجود السلم الصاعد إلى سطح المنزل وإلى الممر الموصل إلى المطبخ وملحقاته من قبو ومخزن غلال . والمطبخ مجهز بفرن لإعداد الخبز وبالأجران والمعاجن . وقد حضرت النساء القائمات على خدمة أهل القرية للمعاونة فى طحن الحبوب . أما خزانات المياه فموجودة فى الهواء الطلق . وإلى جانب ما يوجد فى كل حجرة من تجهيزات خاصة بها تتوزع على الجدران أكثر من كوة ، وتحتوى الحجرة على أثاث متواضع مصنوع من الخشب أو الحجر بها مقاعد وكراسى ومساند للرأس وأســـرة وصناديق وحصر وسلال وأدوات من السيراميك وبعض المنسوجات . وأغلب الظن أن نساء القرية وأطفالهن الصغار كانوا يقضون معظم نهارهم فى هذا المكان المسور ولكن النسوة كن يتزاورن ويناقشن بحرارة آخر أخبار أهل الشاطىء .

٣ ـ الجيران

كان المصرى يحافظ بالطبع على علاقات الجوار والصداقة مع أشخاص لا ينتمون إلى أسرته أو أفراد بيته . وقد ثبت ذلك دون لبس من الشواهد النادرة التى وصلت إلينا . غير أن المصرى لا يسترسل كثيراً حول حياته الاجتماعية التى نمت وتطورت فى الأغلب من خلال عالمه المهنى ، ومع ذلك فقد دفعته بعض المناسبات إلى الخروج من عالمه المألوف : كالأعياد الدينية الكبرى والمظاهر الرسمية للملكية التى تلتقى فيها أحياناً نوعيات مختلفةمن البشر . كما التقى المصرى أثناء الحروب والأسفار بعادات وعقليات ، أثارت أحياناً حيرته ودهشته . ولكنه عرف كيف يحاور ويقيم علاقات وديه إذا اقتضت الظروف ذلك . أما الأسواق فكانت الإطار الذى يجتمع فيها تجار من أصول مختلفة بالسكان المحليين ولكننا لا نعلم إن كانت هذه الاتصالات أفضت إلى علاقات منتظمة و طبيعية أم ظلت طافية على السطح دون تأثير جوهرى . وقد زاول المصرى بعض الأنشطة القليلة خارج مجاله المهنى كالمبارزات الرياضية والصيد البرى والصيد البحرى وممارسة المسئوليات الإدارية المحلية والممارسات الدينية وإقامة الولائم ولكن كلها دارت فى إطار القرية أو الحى الضيق أو المنطقة على أكثر تقدير .

ولا تذكر مصادرنا سوى القليل النادر عن هذه المواضيع . إذ أن تصويرها لا يأتى إلا عرضاً . وإن حدث فإنه لا يحتوى إلا على إشارات هزيلة حول خلفية كل حدث وهوية كل شخص والمعنى الحقيقى للمواقف الشاخصة أمامنا . كما أن الشهادات التى توفرها لنا المراسلات يعيبها ما يعيب المراسلات بشكل عام من حيث أنها تحمل إشارات غامضة ومبهمة عن مواضيع لا يعرفها سوى أصحابها ، الأمر الذى يحد من قيمتها كوثيقة . وإضافة إلى ذلك فإن المصرى يخلط فى مراسلاته بين المسائل

الشخصية والمهنية . إذ يفترض أن من يراسله ، سواء كانت زوجته أو كان قريباً أو صديقاً أهلاً لثقته ـ عليه أن يحل هذه المشاكل وتلك . إذ يبدو أن الحياة الخاصة عند المصرى القديم كانت تنتمى إلى الحياة العامة أكثر مما درجنا عليه فى أيامنا هذه . وربما كان اختيار الأشخاص الذين يقرر المصرى فى نهاية المطاف تصويرهم على جدران العمائر هو خير تعبير عن نوع العلاقات التى كان يميل إليها أكثر من غيرها . فقد وقع اختيار بعضهم على رؤسائهم ، وآخرون على الأصدقاء ، وفضل فريق ثالث الخدم الأوفياء . وقد جاء هذا الاختيار مقترناً بسماتهم الشخصية وعلاقاتهم الفعلية مع كل منهم . ولكن هنا أيضاً يظل هامش الإضافة الحقيقية ضيقاً جداً ويعبر فى كثير من الأحوال عما هو اصطلاحى وتقليدى .

ومرة أخرى نصل إلى ضرورة حصر دراستنا فى مجتمع دير المدينة . ومن نافلة القول أن هذا الاستقصاء لا ينسحب على غيره من الأوساط الاجتماعية . وإذا استبعدنا عمل أهل القرية ، بمعنى الكلمة ، وعلاقاتهم بالسلطات المحلية التى دأبت على تكليفهم بأعمال جديدة ، فقد أفنى عمال القرية أنفسهم لتحقيق متطلبات حياتهم الجماعية مع درايتهم بواقع الأمور فى البلاد وانعكاساته على أحوالهم المعيشية . صحيح أن مهمة الرؤساء هى السهر على التوزيع العادل لحصص الغذاء وحسن سير الخدمات العامة (كتزويد أهل القرية بالماء والتقسيم السليم لساعات عمل العبيد فى كل بيت إلخ ..) وضمان الاستقرار فى موقع العمل أو فى القرية ، معتمدين على الأساليب الوقائية بمساعدة الحارس والبوابين وشرطة الجبانه ، فيلجأون إذا اقتضى الأمر إلى المحكمة المحلية . ولكن يقع على عاتق الجميع ، بما فى ذلك النساء ، التنفيذ اليومى لكل هذه الأعمال . فيتناوب البعض على استلام المواد الغذائية ، ويتم نقلها على حمير قام البعض بإعارتها أو تأجيرها . ويبلغ آخرون عن المخالفات

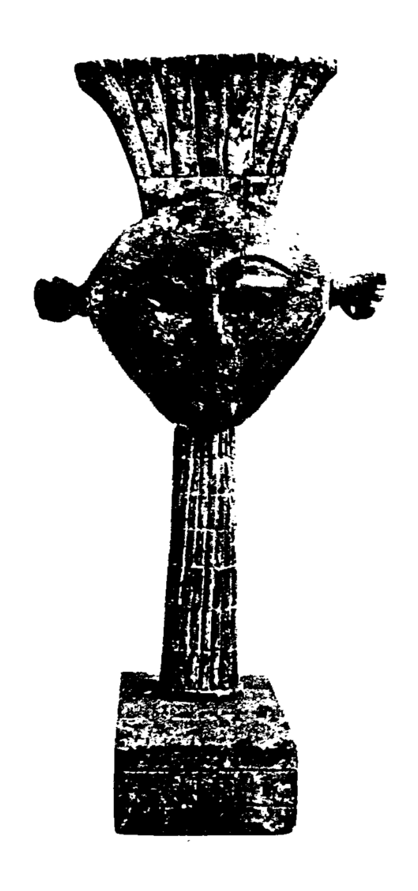
القانونية التى ضبطوها عملاً بالقسم الذى أقسموه عند انخراطهم فى فريق العمل ، أو ينضمون إلى جماعة المحلفين إذا اقتضى الأمر . ولا تستقيم الأمور دائماً لإدارة القرية . ولا تظهر دائماً فاعلية محاولاتها غير المتوازنه فى الحفاظ على الانضباط الضرورى ، مع وجود المقابر الملكية بما تحتوية وما يترتب على ذلك من إغراءات . فكثيراً ما تثور القلاقل وتهتز هذه الجماعة الصغيرة ، إذا حاولت إحدى الشخصيات الأقوى من غيرها التعبير عن رأيها . وعلاوة على ذلك يجتمع أهل القرية يومياً فى العديد من المناسبات : كالأعياد المحلية والعبادات الجماعية بالإضافة إلى مناسبة إصدار ترخيص باستخدام الجبانة ومواصلة البحث عن مدخل المقبرة القديمة أو أعمال تشييد المقبرة الجديدة ، حيث يتوافد العديد من الزملاء فيتجمعوا للمساعدة والمعاونة .

ورغم أن العلاقات التى تربط القرويين هى جوهر صلاتهم الاجتماعية إلا أن هؤلاء الناس برجالهم ونسائهم لم ينغلقوا على أنفسهم . لقد اعتادوا تبادل الزيارات مع أفراد أسرتهم المنتشرين فى المنطقة بمناسبة مولود جديد أو جنازة أحد الأقارب . كما يتوجهون إلى القرى أو المعابد المجاورة أو إلى السوق القائمة عند شاطىء النهر . وينتقلون إلى البر الآخر لإنجاز بعض الأعمال كما تشهد على ذلك العقود التى تقنن هذه المعاملات وبعض الخطابات التى تحدد مواعيد إنجاز الأعمال المطلوبة أو التعليمات الخاصة بالتنفيذ أو الملاحظات حول عيوب ما تم تسليمه . إن بعض رجال القرية ، لا سيما الرؤساء منهم ، يحملون أحياناً ألقاباً دينية شرفية ، هم وزوجاتهم . ويرتبطون بعبادات أحد معابد المنطقة ، ويشتركون على ما يبدو فى إقامة الشعائر ، كمنشدين مثلاً ، وأثناء الاحتفالات الخاصة ، أو أعياد الإله ، على وجه التحديد .

٤ ـ الممارسات الدينية

تحتل أعمال الورع والتقوى مكانة عالية فى حياة المصرى اليومية سواء كان ملكاً أم من رجال البلاط أو من عامة الشعب ، فالمصرى يعيش فى بلد غنى بآلهته . ولكنه وقبل كل شىء كان يميز آلهة مدينته عن غيرهم ، فيجلهم بأساليب مختلفة حسب وضعه الاجتماعى ، فيتولى فرعون بناء المعابد فى طول البلاد وعرضها ويجهزها بكل غالٍ ونفيس . ويشيد الأعيان هيكلاً صغيراً أو ناووساً يوضع فيه الإله ، أو نصباً حجرياً أو مجرد تمثال . أما عامة الناس فيفعلون نفس الشىء ولكن بالمشاركة الجماعية . ويستطيع المصرى أن يشغل أيضاً منصباً كهنوتياً فى أحد المعابد القريبة منه حيث تتم الفرائض الدينية بانتظام . وإذا اضطرته الظروف للإقامة بعيداً عن مدينته ، يتوق شوقاً إلى آلهته ويضنيه بعده عنهم . ولكنه يتظلل بحماية آلهه محل إقامته . بل وقد يمنح مناصب شرفيه فى خدمتهم . وكانت المراسلات خير صدىً لهذه الممارسات . كما أشارت إليها المخربشات . فلا يتطرق كاتبها إلى صلب موضوع الرسالة دون أن يطلب مراسله حماية ورعاية آلهة المدينة التى يعيش فى كنفها . ونكتشف بالتالى جهة إصدار الوثيقة .

تعتبر كبرى أعياد التقويم المصرى أعياد عامة يشمل الاحتفال بها الجميع وتمنح فيها العطلات الرسمية . أما الأعياد الخاصة بالمناطق مثل تزاور آلهة إحدى الجهات لآلهة جهة أخرى مجاورة فهى أعياد محددة يحتفل بها فى نطاق المنطقة فقط . ويتم الاحتفال بإبحار موكب الإلهة أولاً بالمراكب ثم ينتقل موكبها من معبد إلى آخر . ويخرج المصريون وقد تزينوا بأحلى ما عندهم ليشاركوا فى هذه الأعياد أو يشاهدونها . والأعياد العامة موزعة على مدار السنة على أساس عدة أعياد لكل دورة من دورات القمر . وهذه الأعياد متنوعة منها عيد من أعطى إسمه



شكل ١٠ : شارة الإلهة " عنقت " من دير المدينة . " متحف اللوفر " .

لكل شهر من شهور السنة . وغالباً ما يرتبط بفصول السنة : كحلول الفيضان والحصاد إلخ .. ومن الأعياد ما يكرم الروابط التى تجمع بين الآلهة ، أو لها الطابع الجنائزى إو إحياء ذكرى أحد فصول قصة حياة أوزيريس . وأعياد أخرى تخليداً لذكرى أكثر الملوك

المتوفين شعبية وذلك فى ذكرى اعتلائهم العرش أو وفاتهم . ولا يجمع هذه الممارسات الدينية الجماعية نسقاً واحداً . فمن الأعياد ما تنتقل فيها الجماهير من مكان لآخر . وأخرى تقام لها الاحتفالات فى عواصم الأقاليم أو فى أصغر النجوع على حد سواء . ومن هذه الممارسات ما يفتح المجال لبعض الطقوس الدينية أو سكب الخمر إكراماً للآلهة أو تقديم الأضاحى والقرابين . أو اجتماع الاصدقاء حول موائد المحبة .

ومن ناحية أخرى ، يعيش أفراد الشعب فى الإطار المحدود لقريتهم أو منطقتهم . ويكثرون من الصور المقدسة . ويجعلون من كل واحدة ركيزة نوعية لمعتقد متفرد وأضافوا الحيوانات المقدسة والألوية والرموز التى تمثل هذه الآلهة . كما يخلعون على عناصر البيئة الطبيعية قوة خارقة . مثال دلك قمة مرتفعات طيبة . فهى تارة ثعبان وتارة أخرى لبؤة ، وهى إيضاً محبة للصمت . ويرحب المصرى بحماس بالطقوس الدينية الوافدة إليه من أرجاء مصر ومن الأقطار الأجنبية والتى ينقلها إليه الأسرى الأجانب والعمال الحرفيون عند انتقالهم من موقع إلى آخر .

وهذا المجمع للآلهة الشعبية تدور من حوله ممارسات دينية بسيطة . مثال ذلك " لوحات الأذن " * التى تهدف إلى ضمان نقل تضرعات مقدمى هذه النذور إلى الآلهة . ويتشكل جمع صغير من الكهنة حول هذه الصور المقدسة وما يتولدمنها من رموز . كما تنهض المبانى المقدسة لخدمتها .

---

* لوحات متميزة لأن مناظرها تمثل أذناً آدمية أو أكثر وتعبر عن استجابة الإله للدعاء (المراجع) .

وتقدم لها القرابين بانتظام . وتسمن المواشى للتضحية بها . وتصنع الجعة الطازجة خصيصاً لها . ويجتمع نفر من المؤمنين حول هذه الصور المقدسة احتفاءً بعيدها . وتُسَيَّر مواكب أكثر الصور تقديساً وتبجيلاً وتكشف عن الغيب بما لها من قدرات . كما تمارس على مقربة من أسوار المعابد الكبرى ، الظواهر الثانوية للديانة المصرية وقد تشبعت كثيراً بالسحر : من مكاشفة الغيب وتفسير الأحلام وأعمال التنجيم وبيع التعاويذ والرُقى . وكلها منتجات ثانوية شاعت وانتشرت فى هذه الأوساط المقدسة . ولكن الديانة المصرية لا تنحصر بمختلف أشكالها ومظاهرها فى المعابد والهياكل . فيضم كل منزل رسومات ونصب حجرية وتماثيل صغيرة تجلب على أهل الدار نِعَم الآلهة العظمى والآلهة الصغرى والمتوفين . إن ممارسة أعمال الورع على مستوى الفرد ومستوى الأسرة من الأمور الشائعة . ومن أبسط مظاهرها بالطبع ما اختص به المصريون موتاهم من طقوس . وقد انتشر اعتباراً من الدولة الوسطى رحلات الحج إلى أبيدوس إلى جوار أوزيريس أمير أهل الغرب ـ أى الموتى .

٥ ــ شغل أوقات الفراغ

لقد أصاب الملك الملل . فقرر أبناؤه الترويح عنه . فأخذوا يقصون كل بدوره على مسامعه ما حدث من مآثر منذ القدم فى زمن الأجداد . وتلك هى الفكرة التى ابتدعها مؤلف قصص " بردية وستكار " للربط بين مختلف قصصها وتقديمها للقارىء . وتجسد إحدى هذه القصص شخصية الملك سنفرو مؤسس الأسرة الثالثة * بعد أن باءت كل محاولات الترفيه عنه بالفشل . أما ساحره فلم تعوزه الحيل :

" فليذهب جلالتك إلى بحيرة القصر ـ له الحياة والرفاهية والصحة . وجهز قارباً ترافقك فيه جميع جميلات القصر . وسوف ينشرح قلبك إذ تشاهدهن يجدفن صعوداً ونزولاً (..) "

وراقت الفكرة للملك .

" وأكد الملك أنه ينوى القيام بنزهة على سطح الماء . أحضروا لى على الفور عشرين مجدافاً من الأبنوس المطعم بالذهب ذات مقابض من خشب الصندل المكسو بالذهب ، وأحضروا عشرين إمرأة أجسادهن ونهودهن جميلة ومجدولات الشعر ولم يلدن . أحضروا لى أيضاً عشرين ثوباً من الشباك تسلم للنساء للبسها بعد أن يغيرن من ملابسهن "

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية

(G. Lefebvre op. Cit . P.78 .)

---

* كتبت هكذا فى الأصل الفرنسى . ولكن من المعروف ومن المتفق عليه أن سنفرو هو مؤسس الأسرة الرابعة وبانى أول هرم كامل (دهشور) فى تاريخ العمارة المصرية ووالد الملك خوفو بانى الهرم الأكبر . وقد عُبد سنفرو فى سيناء وأصبح أحد الآلهة الحامية لهذه المنطقة الهامه من أرض مصر (المترجم) .

أما ملوك الدولة الحديثة فقد اشتهروا بممارسة فنون الصيد فى صحارى مصر وفى النوبة أيضاً . حيث يطاردون الأسود وأبو حراب والتيتل ويثخنوهم ضرباً بالسهام . إن الصيد البرى والصيد البحرى رياضتان وتعبيران رمزيان عن انتصار فرعون ورعيته على قوى الشر . كما يمارس الصيد أيضاً فى بحيرات الفيوم والدلتا لصيد فرس النهر والتماسيح بالحراب . أما الصيد فى المسطحات المائية فيستخدمون الشباك لصيد الأسماك أو العصا المرتدة * لصيد الطيور المائية أثناء طيرانها . كما كان لرياضة المصارعة هواتها . فاعتاد المصريون إقامة مباريات المصارعة والألعاب التى تعتمد على مهارات أصحابها . واعتبرت مآثر امنحوتب الثانى فى رمى السهام جديرة بأن تسجل على نصب حجرى أقيم خصيصاً لتخليد هذه المناسبة .

أما الرقص أو الموسيقى والغناء فتتغلب عليها المسحة الدينية حتى إذا كانت تتم لأغراض دنيوية محض . ومع ذلك فيبدو أن جو الولائم الراقية التى كانت محببة إلى قلوب المصريين ما كان ليكتمل بدون الجوقات الموسيقية . والشاهد على ذلك نقوش ورسومات المقابر . كما أن فريقاً متواضعاً من عازفى الآلات الموسيقية كان يرافق رُفات العمال الذين عاشوا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . أما المسرح فقد كان قاصراً على ما يبدو على الدراما الأسطورية ولم يخرج من حرم المعابد المقدسة ، كما حدث بالنسبة للفنون الأدبية الأخرى كالقصة والملاحم الأسطوررية والقصص الأخلاقية والحكم والشعر التى كانت تقرأ أو تتلى أمام الجماهير . وعرفت ألعاب التسلية منذ أقدم العصور ، وقد وضع بعضها فى حجـرة الدفـن بجـوار المتوفـى للترويـح عنه وتسليتـه . أما

---

* وسميت مرتدة لأنها ترتد إلى قُرب مُطلقها إذا لم تصب الهدف ومازال الأستراليون الأصليون يستعملون نفس هذه الوسيلة فى صيد الطيور الآن . (المراجع) .

لعبة الثعبان فهى شبيهة بلعبة الأوزة . أما لعبة " السنت " فهـى قريبـة الشبـه بلعبـة " الطاولة " . ويوجد " السنت " مصوراً فى الرسومات التوضيحية " لكتاب الموتى " كما وجدت أيضاً أنواع من التسلية التى تعتمد أكثر على الذهن وتقضى باختراع كلمات متقاطعة أدبيـة . صحيح أن الألعاب والتمثيل والأنشطة البدنية والفنية والثقافية ، كانت مناسبات طيبة لإبراز إمكانيات كل من الجسد والفكر ، ولكنها حققت للمصرى أيضاً ممارسة أحب هواياته إلى قلبه لشغل وقت الفراغ . إنها هواية المناقشات الصاخبة التى لاتنتهى . ويبدو ذلك واضحاً من النصوص التى ترجع إلى جميع العصور وكافة الأوساط .

الفصل السادس

الحياة اليومية : ظروفها ومميزاتها .

ا ـ التغذية

تمثل التغذية مكانة بارزة فى حياة المصريين كما هو واضح من وظيفة فرعون فى توفير الغذاء . " فكلماته هى التى تخلق الطعام " . وفى المقابل ، فإن المؤن التى تتحدد عند وصول الملك وجيشه إلى مكان ما تأتى رداً على نعمائه اليومية . إن قائمة المواد الغذائية التى يتم إعدادها فى هذه المناسبة ليست بأقل من تلك التى كانت تقدم على شرف ملك فرنسا عند عودته من حملاته العسكرية .

ويتم استدعاء صناع السلال لإعداد عشر صوانٍ وخمسمائة سلة ومائة تاج لتــزدان بالزهــور . ويجرى تجهيز ما لا يقل عن ثلاثين ألف رغيفاً من الخبز وقطعة حلوى من مختلف الأنواع . ويلى ذلك ثلاثمائة سلة مملوءة باللحوم المجففة وبالذبائح . بالإضافة إلى اللبن والزبد وخمسين أوزة وفاكهة وخضروات وفحم خشب لإشعال النار . وعلى مقربة من المكان يطلب البعض إحضار مزيد من العسل والخيار والخروب والفلفل . وأهم من كل ذلك مزيد من الخبز والجعة واللحم والحلوى . وتتواصل قائمة الغذاء فتذكر الزيوت واللحم البقرى والطيور وشتى أنواع الأسماك والحمام واللبن والزبد ومزيد من الخضروات . ونوع خاص من الجعــة والنبيــذ إلخ ... وتراعى الدقة الفائقة فى إعداد المائدة وتقديم الأطعمة . فأوانى المائدة من الذهب والفضة . ويقوم بتقديم الطعام أجمل العبيد وقد ارتدوا أزهى الحلل لهذه المناسبة إلخ ... إنه شىء أشبه ما يكون بالولائم الرومانية التى ترمز إلى عصور الإنحطاط . ولكننا هنا نجهل الظروف

التى أحاطت بهذا الاستقبال ووضعية المضيف الذى يتولى إعداد هذه الوليمة .

كان الطعام بمختلف أنواعه متوفراً فى مصر . أما استيراد الطعام من الخارج فترف . ولكنه ترف عمّ معظم الفئات الاجتماعية بدرجات متفاوته . إذ وجد المنقبون حتى فى قرى عمال فرعون بطاقات جرار النبيذ وآنية الزيت المستوردة من الخارج . وربما لا ينطوى الأمر على أكثر من هدايا قدمها فرعون وخاصته بمناسبة أعياد اليوبيل التى يحتفل بها . إن أساس التغذية هو الخبز المصنوع من الحنطة والجعة المصنوعة من الشعير . إن التمييز بين الخبز والحلوى غير واضح تماماً . وأنواعه كثيرة ومتعددة تصل إلى العشرات ويتم تحليته بإضافة اللبن أو البلح أو العسل . كما توجد عدة أنواع من الجعة والمشروبات الأخرى المتخمرة المصنوعة من البلح مثل شراب " السيرمت " . أما النبيذ وهو من المواضيع المفضلة والمحببة لدى الرسامين والنحاتين إلا أنه يظل من المشروبات التى تقدم فى الأعياد فقط . وصحيح أن اللحوم لم تقدم على المائدة كل يوم إلا أن المصريين يستهلكون منها كميات وفيرة كما أثبتته أحدث الدراسات . ولم ينحصر استهلاكهم فى اللحوم البقرية وفيما يصطادونه من حيوانات وفى الطيور والتى تزخر بها موائد الآلهة فى المعابد وموائد الناس . ولكنهم كانوا يأكلون أيضاً لحم الماعز والخراف والخنازير المنتشرة فى القرى والأرخص سعراً . أما الأسماك التى كان يعج بها النيل والبحر المتوسط والبحر الأحمر فقد اعتمد عليها فى طعامه أكثر من اللحوم . وإذا لم يستهلك اللحوم أو الأسماك طازجة فإنه يجففها أو يحفظها . كانت الحُرُمات من سمات كل إله فى منطقته . فأصبحت بعض الحيوانات محل رعاية وحماية أهل المنطقة ، أو صارت منبوذة . كان المصريون يزرعون أنواعاً متعددة من الخضروات والنباتات العطرية ومختلف الفواكه . وقد تعرفنا عليها من خلال صورها أو بقاياها التى

عثر عليها فى المقابر والمساكن . ورغم وجود اللبن ومنتجاته إلا أن استهلاكه لم يكن شائعاً . أما الشحوم الحيوانية والنباتية فقد كان استهلاكها عادياً .

وهكذا فإننا نعرف جميع هذه المواد الغذائية بالإسم وبالصورة ومن خلال الآثار المتبقية التى حفظها جفاف الجو الفريد حتى أيامنا هذه . ولكن تظل أساليب الطهى التى أخذ بها المصريون فى إعداد طعامهم سراً مغلقاً . حتى أنه ليصعب علينا القول أنهم قد عرفوا حقاً فن الطهى . اللهم إلا بعض الأساليب البدائية . وفى واقع الحال نشاهد أحياناً على جدران المقابر شواء الطيور أو قطعة من اللحم البقرى أو إنضاج الطعام فى صلصة متبلة . وقد برزت منه قطعتا عظم أو ثلاث . ولا شىء أكثر من ذلك . فلا وجود للحم المفروم أو الخضار على شكل شرائح أو مكعبات أو حلقات ولم تصلنا وصفة واحدة للطهى أو صنع الحلويات أو إعداد الصلصة . إن النصوص التى تكيل المديح للولائم وتعلق على ما بها من أطعمة يقتصر حديثها حول المراسم المنظمة لها أو ترتيب المواد الغذائية . ولا تتحدث بكلمة عن مهارات رب البيت أو ربة البيت . ربما لأن تعليم فن الطهى يتم بالتواتر الشفهى . ونظل نحن المعاصرون محبو الطعام الطيب على جهلنا لأسرار فن الطهى المصرى .

ويبدو أن الولائم حتى فى إطارها العائلى تعتبر لحظات متميزة فى حياة المصريين . لقد أحاطوها بجل اهتمامهم وعنايتهم ، بما يعدون لها من زهور ومخاريط عطرية وجوقات الموسيقى . إن كل ذلك يذكرنا بباقات الزهور والشموع والجو الموسيقى فى عصرنا الحالى ! .

إن منظر المضيفين وضيوفهم المجتمعين فى جو من السعادة حول مائدة كبيرة أو جالسين حول صوانٍ كبيرة ، لهو منظر أبعد ما يكون عن

الواقع والحقيقة ! بل إننا نشاهدهم فى مختلف التصاوير جالسين جنباً إلى جنب فوق كراسى أو مقاعد على مقربة من موائد صغيرة محملة بما لذَّ وطاب ويسهر على راحتهم عدد كبير من الخدم . وتصدح الموسيقى وترتفع أصوات المغنيين لتشيع جواً من المرح بين الحاضرين . وخلافاً لحيوية الموسيقيين والمغنين ورقتهم ، يستنشق المدعوون زهرة اللوتس التى تلامس أنوفهم ويحافظون على توازن مخروط الشحم المعطر فوق شعرهم المستعار ، وهو يذوب فى بطء . فانشغلوا بذلك عن تناول الطعام أو تبادل أطراف الحديث مع الجالسين بجوارهم . إن الخطأ خطؤنا ! فإننا نشاهد هنا طقساً دينياً ذا صبغة جنائزية : إنها مأدبة طعام يقيمها بعض المقربين إلى المتوفى وزوجته تكريماً له . فهل نطالب مثل هذه المشاهد أن تعيد إلينا جو المآدب الدنيوية ؟ لقد انخدعنا وخدعتنا كثرة الأطعمة ورقة الخادمات وسحر الموسيقى . كنا نتوقع أن ننعم بصحبة بهجة . ولكننا فوجئنا باحتفال جنائزى ! .

٢ ـ الصحة

كان المصرى إذا جامل الآخرين تمنى لهم ثلاث أمانى . وكانت الصحة ثالثهم بعد الحياة وبعد بهاء الطلعة التى ميزها عن غياب المرض . إن المعلومات التى وصلتنا عن نظامه الغذائى تنحاز إلى جانب توازن ما يتناوله من طعام : كالحبوب والخضروات الطازجة أو الدرنيات والفواكة إلى جانب اللحوم ومنتجات الألبان فى بعض الظروف . لقد سجلت بعض حالات نقص التغذية فى واقع الحال . إلا أنها لا ترجع إلى خلل غذائى واسع الانتشار . حقاً إن مصر قد عانت عبر تاريخها الطويل أكثر من مرة من مجاعات نتجت عن تدنى مستوى الفيضان أو ارتفاعه أكثر من اللازم ولمرات متكررة . ومع استبعاد هذه الحالات ، فلا يوجد ما يجعلنا نفترض أن الفقراء قد تضوروا جوعاً فى الظروف العادية . أما البدانة التى تتسم بها تصاوير طبقة الموظفين الذين وصلوا إلى أعلى مراتب سلم الترقى الوظيفى فإنها دليل وفرة الغذاء مع قلة الحركة . لهذا السبب لم تحاصر البدانة جسم فرعون ، فمآثره الرياضية خير ضامن لقوته البدنية كركيزة أساسية لسلطته وسلطانه . لقد قام علماء الأجناس البشرية وعلماء أمراض العصور القديمة بفحص ما توفر لهم من أجساد القدماء . فلاحظوا وجود بعض الأمراض الناتجة عن وجود الطفيليات وبعض العيوب الخلقية والكسور والعمليات الجراحية الناجحة فى بعض الأحيان إلخ .. ويشكل كل ذلك تصورنا عن الحالة الصحية السائدة والحوادث والعلاج المقترح .

واعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة نجد فى المساكن بعض التجهيزات الصحية على درجة بسيطة من التقدم . فنجد مثلاً فى دار رئيس الإنشاءات الذى شيد معبد تحوتمس الرابع الجنائزى فى طيبة حاملاً مرتفعاً مجهزاً بأنبوب ينفرج فى جزئه الأسفل ، وبعض الطشوت المصنوعة من

السيراميك مرتبة فى حجرة مخصصة للوضوء . أو نجد مقعداً مثقوباً ضمن أثاث رئيس الفرقة " خع " فى دير المدينة . أو حمامات حقيقية مجهزة بنظام صرف كما فى تل العمارنة . ومع ذلك نجد منذ الدولة القديمة شبكة من توصيلات المياه على درجة عالية من الكفاءة داخل المعابد كما نجد نظاماً للصرف الصحى فى قلعة بوهين عند الشلال الثانى والتى ترجع إلى الدولة الوسطى . ومن المرجح أن قصور الدولة القديمة والدولة الوسطى قد عرفت مثل هذه التجهيزات ، رغم أنه لم يكتشف على أى أثر لها فى أطلال مدينة اللاهون . أما الغَسْل كما تم تصويره على جدران المقابر ، فيتم قرب الماء فى طشوت خشبية كبيرة أو من الطين المحروق . وتشهد المكانس البالية التى اكتشفت فى المساكن حتى المتواضعة منها ، على حماس المشرفات على المنازل والخادمات . كما أن طبقات الجير المتكررة التى يمكن حصرها على جدران المنازل تشهد على الاهتمام بصيانة المكان وتحسين الظروف الصحية . وقد أصاب المصريين المرض رغم الرعاية الصحية واستخدام المواد المطهرة كالنطرون للبشرة والجالينا * للعيون .

وعند ئذ يلجأون إلى الطبيب ، كاهن الإلهة " سخمت " أو مروض الثعابين أى الساحر . وفى أغلب الأحيان يتلازم الأسلوبان ضماناً للشفاء . وبفضل عشرات البرديات الطبية التى خلفها الزمن نعرف الكثير عن الطب المصرى بفضل ما تحتويه من أبحاث . منها بحث عن القلب وأوعيته ، وبحث عن أمراض المعدة . وبحث فى الظواهر المرضية

---

* الجالينا ، هو كبريتيد الرصاص . وقد استخدم كحلاً منذ أقدم العصور إلى العهد القبطى . ويستخرج من خامه بعملية صهر بسيطة ويوجد بكثرة بجبل الرصاص على بعد ٧٠ كيلو متراً من الأقصر (المترجم) .

الخارجية وفى جراحة العظام إلخ ... ومجموعات من الوصفات العلاجية مصنفة حسب موضوعها كالعيون والأذن إلخ ... وإذ تبدو لنا هذه الأساليب متناقضة إلا أن الأطباء الممارسين والمرضى أنفسهم لم يروا أى تعارض بينها ، بل اعتبروها متكاملة . ورغم ما اقتضته تقاليد التحنيط من جراحات ، الا ان المصريين على مايبدو لم يكونوا على دراية بتشريع الجسم البشرى ولو بشكل تقريبى . أما أمراض النساء والولادة فقد كانت محل اهتمام الأطباء الذين وصفوا العديد من الأمراض والعيوب الخلقية وطرق علاجها . ومن الأمراض المنتشرة فى مصر القديمة رمد العيون وعض الثعابين ولدغ العقارب والبعوض والجروح بمختلف أنواعها وإضطرابات الهضم ومختلف أنواع الحميات . ونعرف أن الأطباء بمختلف ألقابهم ووظائفهم يؤهلون منذ الدولة القديمة تأهيلاً شبه علمى أو سحرى ودينى فى دور الحياة الملحقة بالمعابد . وهم يعالجون أعراض المرض وآلامه بالأدوية الشراب أو المراهم أو التدليك إلخ .. كما يعالجون مسببات المرض ـ ربما يكون المريض أغضب أحد الآلهة . فيشمل العلاج قراءة الرُقى أو حمل تعويذة . ولكل موقف تعويذة مناسبة أو تقديم النذور إلى الإله الغاضب .

٣ ـ الملابس والأزياء

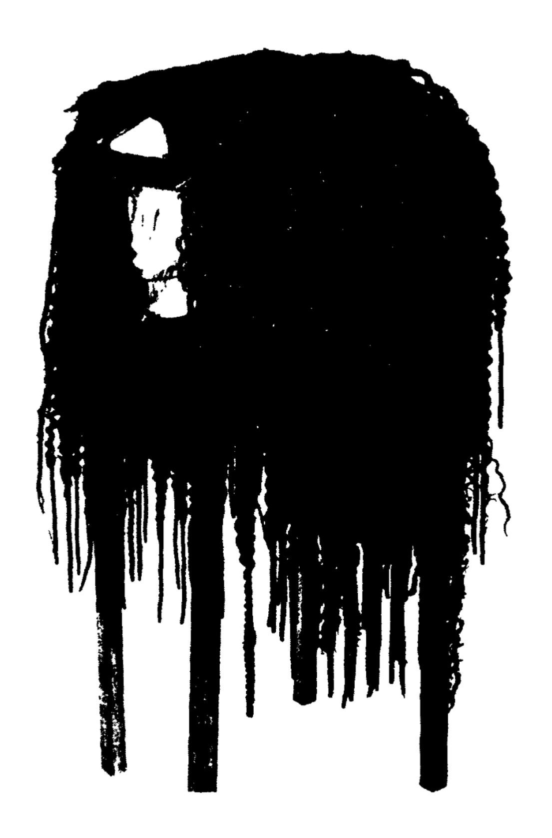
وللتعرف على مختلف أنواع أزياء المصريين تتوفر لنا مجموعات عديدة من المستندات وهى الملابس ذاتها ، إذا ما حفظها لنا الزمن من البلى . ثم القوائم الخاصة بمراقبة غسل الملابس وتوزيعها . وما ذكر عنها فى العقود . وأخيراً المناظر المختلفة . وإذا اعتبرنا مسبقاً أن هذه المصادر الثلاثة متكاملة إلا أنه يندر أن تتفق معاً فى واقع الأمر . فلم نتعرف سوى على القليل من أسماء الأقمشة والملابس بما لا يدع مجالاً للشك . إن الملابس الكتانية الناعمة ذات الثنايا والشفافة التى يرتديها الرجال والنساء على حد سواء ، فى تأنق ، والتى نشاهدها فى رسومات ونقوش وتماثيل بعض العصور يصعب مقارنتها بالشواهد الأخرى غير الدقيقة التى وصلت إلينا . أو إيجاد أى وجه شبه بينهما . واختلف موقف المصريين من العرى عن موقف أهل الحضارات الحديثة . فالعرى من سمات الطفولة فى مصر القديمة . أما البالغون ، فالرجل عارى الصدر والكتفين ويرتدى نقبة قصيرة إذا زاول أعمالاً يدوية ، أو نقبة طويلة فى الحالات الأخرى . أما المرأة فترتدى سروالاً فضفاضاً ينتهى فى أعلاه بحمالتين عريضتين تتركان النهدين عاريين . وغالباً ما ترتدى ملابس رقيقة شفافة تبرز محاسن جسدها ومفاتنه . أما الخادمات فيظهرن أحياناً وقد ارتدين ساتر العورة فقط . ويرتدى الرجال نقبة صغيرة مثلثة كثياب داخلية . ولم يحفظ لنا الزمن ملابس داخلية نسائية .

كان عمال الجبانة شأنهم شأن غيرهم من فئات الموظفين يتسلمون ملابس خاصة بالعمل : السروال (مسس) ، والنقبة القصيرة " روجو " أما الرؤساء فيرتدون نقبة طويلة أو شالاً كبيراً " دايو " ، وفى بلاط سيتى الأول فى مدينة منف كان النوعان الأول والثانى من هذه الملابس من نصيب الجوارى . ويظهر النوع الثالث فى خزائن ملابس السيدات .

وإذا عرفنا أن الأزياء تتكون عادة من قطعة نسيج من الكتان ذات مقاسات أو أطوال متباينة يلتحفها الشخص حسب مقتضى الحال لأدركنا السبب الذى جعل المصرى لا يفرق بين الزى الرجالى والزى النسائى . كما يبدو أن مصر لم تعرف فى حقيقة الأمر سوى زى واحد هو السروال ، ولكنه موزع على عدة طرز ، كما يتضح من المناظر : السروال الطويل أو القصير ، والفضفاض أو المحبوك . وتنقسم العينات التى اكتشفت إلى مجموعتين : فسراويل المجموعة الأولى تتكون من قطعة واحدة بدون أكمام وياقتها بسيطة وتحاك من الجانبين . أما المجموعة الثانية فتتكون من ثياب حقيقية شبيهة بثيابنا . وهى تتألف من قطعة نسيج مستطيلة الشكل وأكمام ومفتوحة عند الياقة . ويبدو أن المعطف قد تم تصميمه بنفس الطريقة . كما شملت مجموعة ثياب توت عنخ آمون على عدة قفافيز .

أما ملابس الأفراد فقد تحلت أحياناً ببعض الثنايا أو الخيوط المبرومة . وتم اكتشاف بعض الثياب على هيئة شباك وقد صنعت وفقاً لأسلوب المكرمية . وهى تذكرنا بزى مجدفات سنفرو . ولكن أغلى الأزياء وأثمنها اكتشفت فى المقابر الملكية . وقد تحلت بزخارف نسجت بخيوط ملونه أو مطرزة أو بإضافة قطع النسيج . وأطراف الثوب مكففة أو ذات هدّاب أو بها أشرطة ذات لون واحد أو متعددة الألوان . كما تم اكتشاف نسيج من الكتان يعلوه ما يشبه الوبر تقليداً للفراء . ولكننا لم نهتد إلى الغرض منه . وكذلك رداء مرسوم يشبه جلد الفهد الذى كان يرتديه الكاهن " سم " . وهذا الرسم يرجع إلى العصر اليونانى الرومانى . وقد وصلتنا بقايا ملابس استطاع الدهر أن يحفظها بفضل مناخ مصر الفريد . وهى موزعة على امتداد تاريخ مصر بدءً من عصر الأسرات الأولى . وعدا بعض الاستثناءات النادرة فإن الملابس التى قاومت عوادى الدهر هى التى صنعت من أقوى الأقمشة وبالتالى الخشن منها .

واستناداً إلى ذلك فهى تقدم لنا صورة غير كاملة عن الزى المصرى . وتبدو لنا أن طرز الأزياء محدودة لأول وهلة . ولكن إذا أخذنا فى اعتبارنا ما أدخل عليها من تعديلات شتى بفضل استخدام الأنسجة المختلفة والبراعة فى تشكيل الثنايا ، لأدركنا مدى الجانب الإبداعى لذوق تصميم الزى المصرى ولحسن الحظ فإن التصاوير تقوم بسدّ النقص فى المعلومات المستمدة من البقايا المكتشفة . صحيح أنها تؤكد ثبات الزى المصرى . إلا أنها تكشف عن نماذج خاصة لملابس الأعياد واهتمام المصريين بالأقمشة المزركشة المستوردة من الخارج مع بداية الدولة الوسطى . كما تبرز الاختلافات بين زى ملابس السيدات والخادمات ، هذا غير الملابس المميزة المخصصة للآلهة وبعض الكهنة . أما النعال فقد صنعت جميعاً طبقاً لنموذج موحد . فطرف النعل الأمامى معقوف مع وجود لسان بين إبهام القدم والأصبع الثانى . وقد صنعت من الألياف النباتية المجدولة أو من الجلد الطبيعى المصبوغ باللون الأبيض ما عدا نعال توت عنخ آمون المصنوعة من الذهب وغير الملائمة للمشى .



شكل ١١ : شعر مستعار لصاحبته السيدة " مريت " من دير المدينة . المتحف المصرى فى مدينة تورينو .

٤ ـ التزيين والحلى

يتضح لنا أن تزيين تمثال الملك المتوفى أو الإله ، وتَزيّن الكهنة قبل ولوجهم إلى أكثر قطاعات المعبد قدسية هو الأسلوب النموذجى الذى يتبعه المصرى للعناية ببدنه . والتزيين يشمل الإغتسال وتطهير الفم بالنطرون وإزالة الشعر ونزعه وتدليك البشرة بالزيوت والأدهان المعطرة وإطلاق البخور . فقد كان المصرى يعطى اهتماماً كبيراً لمظهره العام . ودليلنا على ذلك جمهور حلاقى الذقن والشعر والعاملين فى تزيين الأيدى والأقدام والمشرفات على حسن الهندام الذين انخرطوا فى سلك خدم وخادمات صاحب الجلالة أو رجال البلاط . فإهمال الشخص لمظهره يجعله عرضة لإحتقار الآخرين . كما يتضح لنا من المناظر الأساليب العملية التى تمارس يومياً للحفاظ على الصحة والشباب أو الجمال . صحيح أنها لا تقدم لنا مشاهد تزيين حقيقية إلا أنها تكشف عن مدى ما بلغته من تطور بفضل استخدام أدوات الزينة المكتشفة فى المقابر أو المساكن . والوصفات التى توصى بها المراجع الطبية . فهذه وصفة تجعل رائحة الفم طيبة . وتلك لتجميل الوجه فتزيل من البشرة النمش والبقع الحمراء غير المستحبة . ووصفات أخرى لعلاج الصلع أو لإعادة الشباب . وتتبع فى ذلك أساليب متعددة بدءً بالتبخير المعطر بخشب البخور وراتنج شجر البطم إلى إعداد الأدهان باستخدام العسل أو النطرون الأحمر والملح ويمكن إضافة مسحوق الألبستر أو باستخدام الحلبة المغلية .

أما مساحيق التجميل كما هى واضحة فى الرسومات فتتوزع على مجموعتين : مجموعة تبرز جمال العين وتعتمد على الكحل والملاخيت * والجالينا . والمجموعة الثانية تهدف إلى العناية ببشرة الوجه لتضفى عليها حيوية ونضارة . ويتم صحن المواد المستخدمة فى أجران خاصة ثم تخلط بزيوت أو أدهان وتحفظ فى أوعية صغيرة من الحجر أو الزجاج .

---

* وهو الكحل الأخضر (المترجم)

وعند الحاجة تؤخذ الكمية اللازمة للدهان بملعقة صغيرة منقوشة . ومن أدوات حفظ الكحل قنينة توضع فى جراب ومعها مرود . كما أن آلة الحلاقة والملقط تعتبر من مستلزمات زينة النساء والرجال على حد سواء . ونستمد معرفتنا عن العطور من النصوص المنقوشة فى المعامل المقدسة داخل المعابد أكثر مما نعتمد على ما يذكر فى النصوص الدينية رغم كل ما عثر المنقبون عليه من قوارير فى التجهيزات الجنائزية المكتشفة . ويعتبر الشعر عنصراً أساسياً للتزيين فاهتم به الرجال أسوة بالنساء وأعطوه عناية فائقة . والشاهد على ذلك كثرة ما خلفه المصريون من أمشاط وأدوات تجعيد الشعر ودبابيس والشعر المستعار على وجه التحديد . وفى واقع الحال فقد اعتاد الرجل أن يكون حليق الشعر أو قصير الشعر أو يضع شعراً طويلاً مستعاراً . وقد وصلتنا أعداد من الشعور المستعارة ظلت إلى يومنا هذا فى حالة جيدة من الحفظ . وهى مصنوعة من شعر طبيعى مجدول بخيوط من الصوف . وعندما يرتدى المصرى ملابسه ويتزين فهو لا ينسى لكى يكتمل حسن هندامه أن يستعين بحلى من الزهور وأخرى نفيسة أو غير نفيسة ، مثـل أكاليل اللوتس والعقود والصدريات والحلقان والخواتم والأساور إلخ .. ومن خلال المناظر اكتشفنا كيف أن المصرى كان يأخذ انطباعاً حسناً عن حسن هندامه وذلك من نظرات خادمته أو المقربين إليه أو من الإنعكاسات الباهته للمرايا البرونزية المصقولة صقلاً جيداً .

الخاتمة

استطاع المصرى القديم فى مختلف عصور تاريخه الطويل أن يكون فكرة واضحة عن بلده وحكومة العصر الذى يعيش فيه وعاداته والعقلية السائدة فيه . فكان فى احكامه متفائلاً تارة أو قانطاً متشائماً تارة أخرى . وقد عبر فى أفكاره من خلال بعض الكتابات ذات المستوى الأخلاقى الرفيع اتسمت بفكر ثاقب جعلها قاب قوسين من الفكر الفلسفى . إن قصص خلق العالم التى نقرأها على جدران المعابد أو على جدران العمائر المختلفة ، هى أفكار لاهوتية تحاول تجميع وتفسير الظواهر العلمية أو الأفكار المجردة بالاعتماد على الأساليب المادية والأساطير وفقه اللغة . إن ما تنصح به أحكام الأخلاق الحميدة يتفق ومعظم ما توصلنا إليه من ملاحظات حول العادات والسلوكيات التى تعتبر عادلة أو ظالمة حيال الرؤساء والزوجة والزملاء والجيران والمرؤوسين والفقراء والمنحرفين والمشاغبين والأجانب . ويرجع " حوار اليائس من الحياة مع روحه " إلى الفترة الانتقالية الأولى . إنها مواجهة بين إنسان متشائم وروحه الخالدة التى تهدده بأن تهجره إذا لم يستفد من حياته .

وربما كان هذا الحوار أقدم بحث داخل ذات الإنسان فى تاريخ البشرية . وما نتحدث عنه ليس مؤلفاً منعزلاً إنما هو دراسات تمثل تياراً فكرياً معاصراً للإنهيار العام الذى أصاب البلاد . وفيما بعد وفى عصرى الدوله الوسطى والدولة الحديثة ظهر مؤلف " أنشودة العازف على الجنك " وهو من أقدم الأعمال التى تمتدح الموت وحياة العالم الآخر بل ويصل الأمر إلى حد الشك فى وجود العالم الآخر ممهداً الطريق بذلك أمام الدعوة إلى الإنغماس فى ملذات الحياة . أما أبيات الشعر التى تتعرض لزيف حياة الإنسان أياً كان وضعه الاجتماعى فتكشف عن أن أعمال الإنسان مهما طال بقاؤها فهى فانية . وهذه الأبيات خير تعبير عن فكر بلغ مرحلة النضوج .

تقول الابيات :

" (..) وتزول أجيال وتروح ،
وتجىء أجيال وتقوم ، منذ أيام الجدود ،
وهم آلهة الزمن الماضى ،
الراقدون فى أهراماتهم .

* * *

كل النبلاء والأبرار،
المسجون فى مقابرهم .
لقد أقاموا الديار فى الماضى ، وقد عفاها الزمن .
ما الذى حلّ بهم ؟

* * *

استمعت إلى كلمات
إيمحوتب وحور چد
تروى فى إطار الحكم
إنها تحيى على مر الزمان .

* * *

ماذا جرى لموطن معيشتهم ؟
لقد أنهارت الجدران ،
واختفت الأماكن ،
وكأنهم لم يولدوا قط ! (..) "
(نقلاً عن النص الفرنسى لترجمة
(P. Posener - Krieger op. Cit. P. 75)

مراجع الكتاب

لم تسمح الحدود التى تمليها طبيعة سلسلة QUE SAIS - JE التى نشرت هذا الكتاب بالإشارة إلى العديد من المقالات المتخصصة التى أوحت بهذه الدراسة التجميعية السريعة ، أو ذكر جميع المؤلفات التى تم الرجوع إليها عند دراسة نقطة بعينها . بيد أنه يتعين إرشاد القارىء المتعطش إلى مزيد من المعرفة ، إلى أمهات الكتب التى عالجت بنيان المجتمع المصرى وإلى مجموعات النصوص المترجمة ودراسات فن التصوير واضعين أمام القارىء الوثائق نفسها :

* حول المؤسسات والمجتمع :

O. D. Beriliev. La classe laborieuse en Egypte au Moyen Empire (en russe) , Moscou . 1972 , et les relations sociales en Egypte au Moyen Empire (en russe) , Moscou . 1978 ; J. Cerny . A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period. Le Caire , 1973 , et Valley of the Kings . Le Caire , 1973 ; W. Helck . Untersuchungen zu den Beamtentiteln des Agyptischen alten Reiches , Gluckstadt - Hambourg , 1954 , et Zur Wervaltung des Mittleren und Neuen Reichs . Leyde . 1958 ; G. Ogden , Two aspects of the Royal Palace in the Egyptian Old Kingdom . Colombia , 1982 ; P. Posener - Krieger , Les archives du temple fun`eraire de Neferirkare^ - Kakai, Le Caire , 1976 : et D. Valbelle , " Les ouvriers

de la Tombe " , Deir el Me`dineh a` l` e`poque rames-side , Le Caire , 1985 .

* حول الإنتاج واسعاره وصناعته واستخداماته :

W. Helck Materialien zur Wirtschaftshgeschichte des Neuen Reiches , Wiesbaden , 1961 - 1969 ; J. J. Janssen , Commodity Prices from the Ramessid Period , Leyde, 1975 . A . Lucas et J. R. Harris , Ancient Egyptian Materials and Industries , 4 ed., Londres, 1962 .

* حول الأدب بمعنى الكلمة :

G. Lefebvre , Romans et Contes e`gyptiens de l` e`poque pharaonique Paris 1949 ; M. Lichtheim. Ancient Egypyian Litterature , Los Angeles . 1975 - 180 , et S. Schott, Les chants d` amour de l` Egypte ancienne , trad P. Posener - Krieger , Paris , 1956 .

* حول الأدب التاريخى أو السياسى :

J. H. Breasted Ancient Records of Egypt, New York , 1906 ; R. A. Caminos, Late - Egyptian Miscellanies , Oxford , 1954 : A. H. Gradiner , Ancient Egyptian Onomastica , Oxford, 1947 : G. Posener , Litt`erature et politique dans L` Egypte de la XIIe dynastie, Paris , 1969 : et A. Roccati, La litt`erature his-

torique sous l` Ancien Empire e`gyptien , Paris , 1982 .

* حول فن التصوير :

P. Montet. Les sc`enes de la vie priv`e`e dans les tombeaux `e`gyptiens de l` Ancien Empire , Strasbourg , 1925 : et J. Vandier , Manuel d`Arch`e `ologie ` egyptienne , t. IV a` VI, Paris, 1964 - 1978.

* وبصفة عامة وكمدخل أولى وتمهيدى ننصح بالرجوع إلى :

G. Posener, S. Sauneron et J. Yoyotte, Dictionnaire de la civilisation `egyptienne , Paris, 1970 .

* وللوقوف على الرأى الأخير فى موضوع بعينه يمكن الرجوع إلى :

Lexikon der Agyptologie , Wiesbaden . 1975 - 1986 .

المحتويات

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر

سلسلة " كتاب الفكر "

العنوان	المؤلف
١ ـ الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة (طبعة ثالثة) .	د. فؤاد زكريا
٢ ـ جماعة النهضة القومية .	رؤوف عباس
٣ ـ محمد مندور وتنظير النقد العربي .	محمد براده
٤ ـ تحديث العقل السياسي الإسلامي	د. محمد رضا محرم
٥ ـ الواقع الفلسطيني : الماضي والحاضر والمستقبل .	د. ادوار سعيد ود. ابراهيم أبو لغد
٦ ـ الفلسطينيون عبر الخط الأخضر	الكسندر شولش
٧ ـ بين الأدب والتاريخ .	د. قاسم عبده قاسم
٨ ـ مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي	لطفي الخولي
٩ ـ المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة .	د. حسين الصاوي
١٠ ـ الحقيقة الغائبة (الطبعة الثالثة) .	فرج عبده
١١ ـ نافذة على مسرح الغرب المعاصر	فاروق عبد القادر
١٢ ـ أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة .	د. سيد القمني
١٣ ـ مصداقية الردع النووي الإسرائيلي	د. نافع الحسن

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر
إصدارات تاريخية واجتماعية وفنية

العنـوان	المؤلـف
١ ـ الشخصية الوطنية المصرية .	د. طاهر عبد الحكيم
٢ ـ مصر وعالم البحر المتوسط (١٣ بحثاً مختارة من سمينار جامعة القاهرة) .	إشراف وإعداد د. رؤوف عباس
٣ ـ القدس فى العصر المملوكى .	د. على السيد على
٤ ـ اليهود فى مصر من الفتح العربى إلى الغزو العثمانى .	د. قاسم عبده الفتاح
٥ ـ مصر والقضية الفلسطينية .	د. عايدة سليمة
٦ ـ الناصرية وتجربة الثورة من أعلى (المسألة الزراعية) .	د. فتحى عبد الفتاح
٧ ـ الخطاب الروائى .	ميخائيل باختين ترجمة د. محمد برادة
٨ ـ أمريكا وصناعة الجوع .	فرانسيس مورلابيه جوزيف كولينز ، ديفيد كيلى/ترجمة د. حسن أبو بكر
٩ ـ طواغيت المال والحكم فى إسرائيل (مترجمة عن العبرية) .	شلومو فرانكل وشمشون بيخلر

صدر عن دار الفكر للدراسات والنشر
إصدارات أدبية

العنوان	المؤلف
١ ـ الأعمال الكاملة (شعر) .	سيد حجاب
٢ ـ الوطن المحرم (شعر) .	عائشة أرناؤوط
٣ ـ حكايات بهية (شعر) .	محسن الخياط
٤ ـ سيرة بيروت (شعر) .	حلمى سالم
٥ ـ الوتد (رباعية قصصية) .	خيرى شلبى
٦ ـ بيت الياسمين (رواية) .	ابراهيم عبد المجيد
٧ ـ مقام عطية (رواية ومجموعة قصص قصيرة) .	سلوى بكر
٨ ـ من قتل مريم الصافى (مجموعة قصصية) .	محمد المنسى قنديل
٩ ـ الهجرة إلى غير المألوف .	عبد الحميد قاسم
١٠ ـ أغنية الدمية (مجموعة قصص) .	عز الدين نجيب
١١ ـ الموت يضحك .	محمد المخزنجى
١٢ ـ مذكرات جندى مصرى فى جبهة قناة السويس .	د. محمد حجى
١٣ ـ إيزيس حبيبتى (مسرحية) .	ميخائيل رومان
١٤ ـ رطل اللحم (مسرحية) .	د. ابراهيم حمادة

صدر مؤخرا عن

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع



رقم الإيداع : ٥٣٣١ / ٩٠

دار الطباعة المتميزة

ت : ٦٠٥٩٧٤

الناس والحياة في مصر القديمة

من أحدث ما كتب فى هذا الموضوع : وتصدر الترجمة العربية بعد مرور سنة على نشر الكتاب بالفرنسية فى باريس فى يونيو ١٩٨٨ .

وهو كتاب يستفيد منه المتخصص ويشفى غليل كل مثقف شغوف بالإلمام بحضارة مصر القديمة .

مؤلفة هذا الكتاب عالمة الآثار الفرنسية الدكتـورة " دومنيك ثالبيل " ، أستاذ الآثار والتاريخ المصرى بجامعة " ليل " بفرنسا . وترأس حاليا بعثة تنقيب فى شمال سيناء . عاشت فى مصر ردحا من الزمن وباشرت أهم حفائرها فى دير المدينة بالبر الغربى من مدينة الأقصر .

وهى حين تحدثنا فى كتابها عن المصريين القدماء تحاول بعث الحياة فى عالم العلاقات بين البشر والطبيعة ، والروابط التى جمعت بين البشر أنفسهم وكيف تعاملوا مع المؤسسات التى نظمت حياة مجتمعهم . وقد اعتمدت فى ذلك منهجاً علمياً استند إلى الحقائق التى تقدمها أحدث الوثائق التى وصلتنا من مصر القديمة ، ولا سيما وثائق عمال دير المدينة الذين انجزوا أروع الأعمال التي نشاهدها اليوم فى مقابر الملوك والأمراء والنبلاء بالبر الغربى لمدينة الأقصر .

ان مصر القديمة التى يقدمها الكتاب ليست تصنيفاً جافاً لملوك مصر وقصورها ومقابرها وآثارها .... إنها مصر الشعب سواء فى حياته العامة أو فى حياته الخاصه ، فى عمله وفى مسكنه وفى أوقات فراغه ... ماذا كان يأكل ويلبس ، والأمراض التى اصابته والعلاج الذى توفر له . كيف مارس شعائر وطقوس الديانة التى آمن بها . ماذا يبيع وماذا يشترى واسعار السلع المتداوله .

كيف واجه الحياة وأحبها ؟ ، وواجه الموت وحاول قهره ؟. كيف تعامل مع الخير والشر فى الطبيعة والمجتمع والعالم الآخر ؟، كيف كان المبدع لأول حضارة اشرقت على البشرية ، وأسس أكبر وأعرق وحدة سياسية منذ ٥٠٠٠ سنة مضت ... عاشت ومازالت تعيش فى ربوع مصر ؟.



القاهرة - باريس